



كتاب السيرة
محمد صبيح

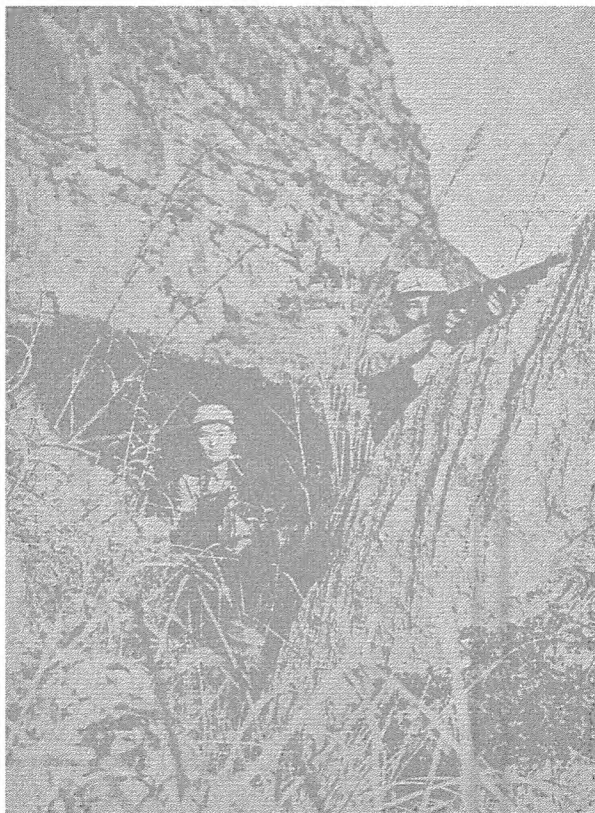
كتاب السيرة
محمد صبيح



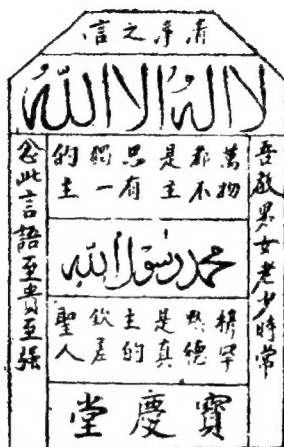
نبأج كای - نبك

محمد : صبح

مکتبہ ذکوة العلم و النشر اعصاب
دار احیاء التراث العربیہ
عیسیٰ البانی الحلی و شریکاء



في مراصة الهبي



الصين

كلمة غريبة — نوعا ما — على أذن القارئ العربي ، لأنها
تمثل في الذهن صورة لبلاد بعيدة ، فسيحة ، لونها أصفر ، وأمرها
كثير الغموض .

أليست قطعة من الشرق الأقصى ، أو هي معظم الشرق
الأقصى ؟ ولم يقل واصف هذا الجزء من العالم ، الشرق القاصي ،
ولكنه عمد إلى المبالغة والتهويل . في حين أن واصفه في اللغات
الأوربية مثلاً لم يزد على أن قال الشرق البعيد Far East ، وهو

يتحدث عن الصين وجاراتها . مع أن المسافة بين إنجلترا مثلاً ، وبين شرق آسيا ، أكثر بكثير من المسافة بين مصر وهذا الشرق . ولكن معظم الأوربيين شعوب رحالة ، جابت الآفاق ، ودفعت سفاتها إلى البحار المجهولة ، فهزمت المسافات ، وطالت قبضتها البعيد ، واستدنت النائي . ولذا لم يظهر في لغتها هذا الغلو البادى في لغتنا .

وسياتى وقت قريب ، بل لعل هذا الوقت قد أتى فعلاً ، الذى يحى من قاموس المسميات ، أوصاف الأقصى والأوسط والأدنى وما إليها ، لأن وسائل المواصلات الحديثة قد جمعت الدنيا كلها فى مكان واحد . فهذه الطائرة التى تطوى الآماد طياً لم يحلم به أى خيال ، حققت وحدة العالم أو كادت ، ولم تجعل ساكن الصين أو الهند فى غربة غريبة عن ساكن مراكش أو البرازيل . ففى يومين اثنين تستطيع أن تذهب من أى مكان فى الدنيا إلى أى مكان آخر ، وتتخلل رحلتك راحة معقولة .

ورحم الله ابن بطوطة الذى ذهب من المغرب « الأقصى » إلى الشرق « الأقصى » فى ٣٠ سنة أو نحوها !!

وإلى جانب الطائرة ، صندوق العجائب — المسمى بالراديو — الذى لا ينقلك إلى أنحاء العالم ، ولكن ينقل إليك ما شئت من

أصوات الدنيا ولغاتها وأحاديثها ، وعمما قريب سينقل إليك مناظرها بالتلفزة .

والصحف والكتب والسينما . . كل هذه من الوسائل الحاسمة في تقريب الشعوب ، وضم الجماعة البشرية في محيط أسرة واحدة . وهذه الحرب الحاضرة التي اعتمدت على المواصلات السريعة ، والنقل الخاطف بأنواعه ، علمتنا كيف يتأثر كل العالم بما يحل بجزء من أجزائه . فقد كان يمكن فيما مضى أن يحارب الألمان الفرنسيين ، أو يخاصم الروس اليابانيين ، ولا يضر أحد إلا أهل هذه الأمم المتحاربة . أما الآن فقد انقضى الحياء ، وزال . وتشابكت مصالح الشعوب تشابكا يحمل كل فرد على أن يعرف عن هذا الكوكب الذي نسكنه كل شيء . ونحن نعلم الآن الكثير ، وسيعلمنا الزمن ما هو أكثر . .

تعلمنا أن سقوط سنغافورة في يد اليابان حرم ثلاثة أرباع العالم من المطاط ، وحرمني أنا ، وحرمتك أنت من أن تجد وسيلة ميسرة ذلولا للانتقال من بيتك إلى عملك ، مع أن بعد ما بينك وبين الملايو كبعد الأرض عن السماء . . وهكذا !

فإذا حجب إلينا تلقى هذا العلم ، فيجب أن نبتدىء بفاتحته ، وهو الإقبال على كل حديث يضيف إلينا جديداً عن شؤون

شعوب الدنيا كنا نجهله . وليكن الحديث عن الصين مألوف
الوقع على الأذن مثل الحديث عن اليونان أو الفرنسيين . بل ربما
كانت هناك عوامل تحملنا على أن نكثر الحديث الصين ورجالها
العظام ، وهى أن مستقبل البشرية كله ، قد يتعلق فى كفة هذا
الشعب العجيب ، الذى كان يعيش فى عزلة ، ثم بدأ طرق الحادثات
الدوى يوقظه رويداً رويداً . وإذا اشترك اشتركا جديا فى سياسة
العالم ، فستشارك مجموعة من البشر تقرب من نصف مليار نسمة ،
يحركها غرض واحد ، وتسعى إلى هدف معين . .

وها نحن هؤلاء نرى الروس ، الذين لا يزيد عددهم عن ثلث
سكان الصين ، يفعلون العجائب ، لمجرد أنهم أحسوا بأنفسهم ،
وبقوتهم ، وبقدرتهم على تشكيل سياسة الدنيا كما يريدون . .



وهناك عاملان هامين جدا يحملان قراء العربية من سكان
مصر وجاراتها على أن تلقى بالها إلى الصين وشؤونها . .
أولها الاقتصاد
وثانيهما الدين

فكلنا تتفق على أن الشعوب الغربية — أوروبا وأمريكا —
ازدهرت ، لأنها صنعت ، وباعت صناعتها لأمم أخرى ، بأرباح

وفيرة ، فتدفقت بين أيديها الثروات ، وأقامت حضارتها على أسس قوية متينة . وإذا أرادت هذه الشعوب أن تتابع حياة الرفاهية التي تحياها ، فلا بد لها من أن تدافع عن أسواقها دفاعا جبارا ، تستخدم فيه كل قدرتها الفكرية والمادية .

وكانت سياسة أوروبا وأمريكا في القرن الماضي وفي الثلث الأول من القرن الحاضر تتجه إلى حرمان بلاد الشرق — قريبه وبعيده — من إقامة الصناعات فيها ، حتى تظل سوقا تجاريا ، ومراكز للزراعة والمواد الخام ، واستهلاك السلع الغريبة . . . ولكن هذه السياسة تبدلت في السنوات الأخيرة لأن أفق القواعد الاقتصادية اتسع ، وانتهى أعلامه إلى أن إنشاء الصناعات الجديدة في أنحاء العالم يزيد رخاءه ، وزيادة الرخاء تساعد على كثرة التبادل ، وبهذا لا يضار ميزان التجارة ، ولا ينخفض مستوى الإصدار ، وإنما يزدده . فحصر إذا غزل ونسجت كل قطنها ، فستستورد الآلات والمواد الكيماوية ، بدلا من الأقمشة التي كانت تستوردها ، كما أن ارتفاع مستوى الحياة بين الشعوب الشرقية سيزيد قدرتها على الشراء ، ويفتح أمامها آفاق التمتع بطبيعتها ، فيكثر الطلب ، وتنشط التجارة في جميع أنحاء العالم . .

وهذا قول سديد ، يحسن أن تستفيد منه شعوبنا ، فهذا وقت البناء والتشييد . .

وإذن فستظل الأسواق العالمية مفتوحة للتبادل التجارى بين الشرق والغرب ، سواء قامت الصناعات الكبيرة أو لم تقم . وكانت الصين من أهم هذه الأسواق وأكثرها اجتذابا لسلع الغرب وصناعاته ..

وقبل هذه الحرب كانت إنجلترا تملك فى الصين من الأموال الثابتة ما قيمته ٢٥٠.٠٠٠.٠٠٠ ر. جنيتها ، وهو مبلغ يفوق ثروتها فى الهند نفسها . وكانت اليابان تملك مثل هذا القدر من المال . وتليهما أمريكا وفرنسا التى كانت كل منهما تملك خمسين مليوناً .. وتستغل هذه الأموال فى البنوك والمصانع والسكك الحديدية والنقل البحرى والمنشآت الجديدة وغيرها . وهذا غير التجارة المنقولة ..

فلما أعلنت اليابان الحرب على الدول الديمقراطية، استولت على أسواق الصين فى المنطقة التى تحتلها . وسرى بعد حين أن خوف اليابان من يقظة الصينيين قد يودى إلى غياع أموالها ، فقررت أن تحمى أموالها .. بالاستيلاء على الصين نفسها .

وستفتح هذه الأسواق يوماً ما بانهاء هذه الحرب ، ولكن تجارة الغرب — وأمريكا بصفة خاصة — أخذت تفتش على

أسواق جديدة ، وظهر أن الشرق القريب — أى بلادنا — يمكن أن تكون سوقا مفيدا ، تشتد المنافسة للظفر به بين الدول التاجرة . ونحن نلمح في هذه الأيام بوادر لهذه السياسة ، التي ترتبت على إقفال أسواق الصين ، وجاراتها التي وقعت تحت النفوذ الياباني . وإذن فليست الصين شرقا أقصى ، لا يهمنا ولا يعنيننا . لأن ظروفها أثرت فينا . . . في لقمة القوت التي نأكلها .
ألم أقل لكم إن العالم تشابك وتقارب حتى لكأنه أمة واحدة ؟



وأما صلتنا الدينية بالصين فهي الإسلام .
وإذا ذكر الإسلام ، فقد قفز اسم مصر وبان دورها .
والإسلام في حياة الصين الماضية كان عقيدة . والإسلام في حياة الصين الحاضرة أصبح عقيدة وسياسة . .
فالمسلمون في الصين يتراوحون بين ٢٥ مليون نسمة ، و٥٠ مليون نسمة . ولكن التقدير الأخير أصح ، لأنه هو الذي يذكركه الصينيون (ويزيدون عليه أحيانا) ، ويذكركه كذلك اليابانيون .

وللمسلمين في الصين — على الرغم من أنهم أقلية — مكان ممتاز لأنهم عناصر نشيطة . تلعب الآن في حياة الصين دورا خطيرا

وقد رأت اليابان أن تضمن نفوذها في الصين ، بأن تستميل لها العناصر الإسلامية . فأنشأت لها أولا سياسة إسلامية . وعقدت مؤتمرا لافتتاح مسجد في بلادها ، دعت له بعض كبار المسلمين . ولكنها مع هذا لم تقنع المسلمين في الصين بأن يتعاونوا معها . كما لم يقتنع أحد بحملة العناية اليابانية التي وصلت في بعض الأوقات إلى القول بأن الميكادو نفسه أسلم .

ولما لم تنجح في كل هذا بدأت تفكر في مصر ، عسى أن تجد من نفوذها الكبير في العالم الإسلامي ما يعاونها على تحقيق أهدافها . وقبل أن تبدأ هذه التجربة — كانت الحرب الحاضرة قد أعلنت — فهي حديثة جدا ..

وبطبيعة الحال ، فإن مصر التي احتملت وما تزال تحتل في سبيل حرياتها ، لن تكون بنفوذها الروحي عوناً لدولة استعارية على تحقيق أهدافها .

ولكن مصر وزعماء المسلمين عامة ، يجب أن يدركوا أن لهم دورا هاما ، وأنهم مقبلون على عمل جسيم . ولأمر ما انتدب زعيم المسلمين في الصين أحد رجاله الكبار ليزور مصر ويقدم للملكها هدية ورسالة . وقد ظل المندوب في القاهرة عامين يبحث ويدرس ويقول ويسمع . وسيعود قريبا جدا إلى بلاده لينقل لقومه صورة ما رأى ..

ولأمر ما دعت الصين وفد الصحفيين المصريين الذى كان مقدرآ له أن يزور أمريكا لكى يعرج على بلادها . . ولكن الوفد اعتذر ، ولم يحسن لبلاده باعتذاره هذا . فحقا ليس فى الصين لهُو ولا زهُو ولا مِرح من النوع الموجود فى أمريكا ، ولكن فيها كدح وجهاد من أجل الحرية والاستقلال . وكم كنا نود أن تحبب هذه الصفقة الجادة الصارمة إلى نفوس المدعويين ، مثلما حبيت إليهم الصفقة اللينة الناعمة التى قبلوها مغتبطين .

ولكن كل المصريين ، وكل المفكرين فى الشرق القريب ، ليسوا كأصدقائنا الصحفيين . . . وعما قريب ستيسر الرحلة بين مصر والصين . وستمتد أسباب التعاون الصادق بين العاملين من أبناء الأمتين لخيرهما معاً . .



ونحن لا نريد أن نطيل فى مقدمة هذا الكتاب ، فموضوع الصين موضوع هام وطويل . ولكن يحسن أن أشير إلى ما تواتر فى البرقيات الأخيرة خلال الشهور القريبة الماضية من أن موقف الصين الحربى أصبح خطرا ، وأن مقاومتها الباسلة العنيدة العنيفة للغزو اليابانى التى استمرت سبع سنين ، قد افترت قليلا نتيجة لضآلة تمويئها بالعتاد وبالسلح . . وبعد أن عزلت اليابان

غنيمتها الهائلة بحراً باستيلائها على كل سواحلها ، وبرا باستيلائها على طريق بورما ، تريد أن تعزلها جوا بالاستيلاء على آخر مدينة تهبط فيها طائرات الحلفاء .

وفي هذا التصوير لخطورة الحالة الحربية في الصين مبالغة . فإننا نقرأ برقية لزعم الصين المرشال شيانج كاي - شيك يقول فيها إن شعبه مصرّ على طرد اليابانيين من سواحل بلاده .

أجل ، فلم يزد اليابانيون بعد حربهم سبع سنين على أن استولوا على سواحل الصين العظيمة المترامية الأطراف . وإذا ضعفت مقاومة الصين نتيجة عزلتها ، أو كفت ، فستفتح لها قريبا نفرة الاتصال بالعالم الخارجي ، وستستأنف كفاحها ، أشد قوة ، وأوفر عزما . ولن يكون هناك حادث حربي أو غير حربي يحمل أحدا على أن يخطئ فيظن أن من الممكن لليابان أو لغيرها أن « تستعمر » الصين .

فقد قرأت هذا الكلام ، وسمعت من كبار اليابانيين ، وذلك لسبيين بسيطين ولكنهما هامين : أولهما أنه لا يوجد جيش في العالم يستطيع أن يتسيطر على مساحة هائلة كالصين تزيد على مساحة أوربا بما فيها روسيا . . وثانيهما أن الشعب الصيني ضخم ،

لا يضيره أن يضحي بعشرة أو عشرين مليوناً من أبنائه في سبيل استقلاله .

ولا يصح أن يقال إن إنجلترا مثلاً تحكم مساحات كبيرة تزيد على مساحة الصين ، وشعوباً تفوقها عدداً . ذلك لأن ما تحكمه إنجلترا أجزاء متفرقة ، والصين أرض واحدة ، والأمم الخاضعة لبريطانيا مختلفة جنساً ولغة وطبائع ، وموزعة في أنحاء الكرة . أما الصين فأمة واحدة بكل ما للامة الموحدة من خصائص جنسية ولغوية وتاريخية .

وسنرى بعد حين مصداق هذا الكلام عن الصين .



هذا ويحسن وأنا أتنقل إلى صلب الموضوع أن أقدم لأصدقائي القراء بالشكر على عنايتهم وتقديرهم لأعداد هذه المجموعة الجديدة من كتب الشهر حتى لقد نفذت طبعتها الأولى بعد صدورها بأيام .

وستصدر الطبعة الثانية للكتابين السابقين بعد أسبوعين إن شاء الله ؟

محمد صبيح

الصين في سطور

■ تزعم الأساطير الصينية القديمة أن الإنسان خلق قبل خلق السماوات والأرض ، تكريماً له وتعظيماً لشأنه ، لأنه سيد الكائنات جميعاً . وهذه النظرة قريبة من نظرة الإسلام الذي يقول إن الانسان خليفة الله في أرضه .

■ يقولون إن الصيني لا يميل كثيراً الى الأجني لسببين : أولهما أن للغربي رائحة خاصة ، وليس للصيني رائحة . وثانيهما أن أنف الغربي كبير . والشيطان وحده هو الذي يحمل فوق وجهه أنفاً كبيراً .

■ مساحة الصين أكثر من ٩.٥٠٠.٠٠٠ ميلاً مربعاً ، ومساحة أوروبا ٣.٨٠٠.٠٠٠ ميلاً مربعاً فقط

■ لم يحص أحد أهل الصين إحصاء دقيقاً . والفرق بين أعلى تقدير وأدنى تقدير هو ١٠٠ مليون نسمة ، أي جزء من عشرين من سكان العالم . ذلك لأن سكان الصين يتراوحون بين أربع مئة مليون ونصف مليار نسمة .

■ عند ما طرق الأجانب أبواب الصين ، بدأ نظام الشرطة يدخل فيها ، وقبل هذا لم يشعر الصينيون أنهم محتاجون الى بوليس

■ شاهد اثنان من الصينيين انجليزاً يلعبون التيس في ناديهما ويبدلون في المباراة مجهوداً شاقاً . فقال أحدهما لصاحبه : يبدو أن هؤلاء الأجانب من الأغنياء ، فلماذا لا يستأجرون خدماً يقومون عنهم بهذا العمل المضى ؟ ! فسكت الثاني ، لأن الأمر كان لغزاً حقيقياً بالنسبة له

■ كانت الصين أمة موحدة لها حكومتها وفلسفتها وحضارتها عندما ظهر في العالم سقراط والمسيح وشرلمان وأبو العلاء للعرى ونيوتن وبسارك . وعرف الصينيون حكيمهم العظيم كنفشيوس قبل أن تعرف أوربا اسكندر ذو القرنين ويوليوس قيصر وحضارتها ترجع الى ٤٥٠٠ سنة أى أنها تضارع حضارة المصريين القدماء .

■ يقول الصينى « لين - يو - تنج » ان المجانين في الغرب من الكثرة بحيث ينشئون لهم المستشفيات . والمجانين في الصين من القلة ، بحيث إذا ظهر منهم واحد عبده الصينيون !

■ ويقول هذا الصينى نفسه : هناك سبب يدعونى إلى ألا

أسلم نفسى لجراح صينى ، وذلك لأنه إذا كشف عن كبدى ليخرج منها حصة ، فإنى أخشى أن ينسى أنه فى عملية جراحية ، ويضع الكبد على سفود الشواء ليعد لنفسه منه وجبة شهية !!

■ يوجد فى الصين أغنياء وفقراء . والذين يستأجرون للعمل منهم يسمون الكولى « Cooly » . ولكن لا يوجد بين الصينيين طبقات . أى ان فئة الارستقراطيين التى تعز بمولدها ، وبدمائها النسبة ، لم تعرف طريقها الى الصين مطلقاً .

وفى تاريخ الصين القديم كان يوجد النظام الطبقي ، ولكن على طراز لم يألفه العالم . فالطبقة الأولى فى الامتياز ، كانت الحكماء وأهل الثقافة . والطبقة الثانية التى تليها الفلاحون . والطبقة الثالثة الصناع والتجار . والطبقة الرابعة والأخيرة الجنود والمحاربون . . ■ ولم تعرف الصين القديمة أو الحديثة امتياز الثروة أو الأسرة فى الاختيار للوظائف العامة ، ولكن القدرة على الكتابة كانت الميزة الأولى والأخيرة للمفاضلة فى شغل الوظائف .

■ ولم يكن السن فارقاً فى اختيار أى شخص لأى عمل . فإذا جاز المتقدم الامتحان أسندت إليه الوظيفة . والامتحان يشمل شباناً فى العشرين وشيوخاً فى الستين والسبعين .

■ ولهذا السبب أيضا كانت الصين أول الشعوب اختراعاً للورق والصحافة والبوصلة .

■ يواجه الفلاح الصينى كثيرا من الكدح والكد في سبيل عيشه كالفلاح المصرى ولا عجب فنحن أقدم شعيبين في التاريخ !

■ يموت كل عام في الصين نحو ٢ مليون نسمة من الجوع .

■ وفي سنة ١٩٣٥ — ولم تكن سنة أزمة ظاهرة — التقط

من شوارع شنجهاى ٢٩٠٠٠ جثة صينية . ولم يمت هؤلاء في حرب أو معركة دارت في المدينة العظيمة . ولكنهم ماتوا جوعاً !

■ وتنافس الصين مصر أيضاً في مسألة «البقشيش» إذ لا بد

من أن تدفع ضريبة رسمية أو عرقية على كل عمل أو حركة . وقد روى أن أحد الزوار الأجانب دعا صانع ثياب لمقابلته في فندق المدينة الكبير . فلما دخل عليه وجده يلهث من الاعياء ، لأنه صعد ١٦ طبقة من البناء الضخم ، مؤثراً هذا الجهد المضى على أن يدفع « البقشيش » لعامل المصعد .

■ كل كلمة في اللغة الصينية تتكون من مقطع واحد . وكثيراً ما

تؤدى الكلمة الواحدة عدة معان ، اذا ذكرت وحدها . فكلما

« شي Shi » مثلاً تؤدي ٢١ معنى . منها : تاريخ ، وأسد ،
وجثة ، وسوق ، ومنزل ، وجيش ، وشعر ، ورقم ١٠ ، وضابط ،
وحجر ؛ والأفعال : يستخدم ، ويعتمد على ، ويعلم ... الخ ...
وليس هذا فقط ، بل يمكن أن تزيد ١٤ معنى آخر . أو هكذا
تقول دائرة المعارف البريطانية .

■ لا توجد في اللغة الصينية حروف هجائية . ولكن لكل
كلمة صورة . وفي اللغة الصينية نحو ٤٠ ألف كلمة . وفي الصين كلها
نحو ١٢ عالماً يعرفون كل الكلمات الصينية .

■ وعندما يذهب الطفل الصيني الى المدرسة ، يتعلم قبل العاشرة
كيف يكتب نحو ألفي كلمة .

■ تستعمل الجريدة اليومية نحو ٧٠٠٠ حرف في كل عدد .

■ وصناديق حروف الجريدة الصينية تتكون من نحو

٣٠٠٠٠ حرف مختلف (صندوق الحروف العربي يتكون من

نحو ٣٦٠ حرف) .

■ وعلى الرغم من اختلاف اللهجات والنطق في مناطق الصين

المختلفة ، إلا أنه يمكن القول بأن للصين لغة مكتوبة واحدة . ولهذا

السبب يجزم الباحث بأن الصين أمة واحدة ، وأما الهند مثلاً فيصعب

أن تكون كذلك لأن فيها عدة لغات تختلف نطقاً وكتابة .

■ ومع هذا فقد بذل الدكتور هورشي أبو النهضة الفكرية الحديثة في الصين جهوداً كبيرة لتيسير الكتابة .

■ وكما كانت الصورة أساس اللغة الهيروغليفية ، كذلك لا تزال اللغة الصينية تعبر عن نفسها بالصورة . فكلمة «دردشة» مثلاً يعبر عنها في الصينية برسم ثلاث نساء ، وكلمة « خير » يعبر عنها بامرأة وطفل ، وكلمة « عبادة » يرسم لها رجل راكم ، وكلمة « الشرق » تصور بشمس مرسومة خلال شجر .

■ وتعانى اللغة الصينية صعوبة كبيرة في التعبير عن المعاني الحديثة مثل الرأسمالية ، والشيوعية والجمهوريه . ولكنها احتالت بأن فسرت كل كلمة بجملة ، وذكرت ما يقابل هذه الجملة . فمثلاً « برلمان » قالوا عنه [مناقشة - حكم - أمة - اجتماع] . « ديمقراطية » فسروها بقولهم [جميعاً - سلام] . و « انتخاب » ذكروا عنها [ارفع - يد - من أجل - اختيار] . و « فوتوغرافيا » استعاضوا عنها بجملة هي [خذ - صورة - ما كينة]

وهذه طريقة مضنية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يدخلوا الكلمات الأجنبية ، لأنه لا حروف لديهم .

■ عدد سكان شنجهاي أربعة مليون نسمة ، وهى حسب تعداد سنة ١٩٣٩ خامس مدينة فى العالم .

■ وفى شنجهاي من وسائل الترف ما قد يزن نيويورك والعشاء فى مطعمها الأول يمكن أن يكلف الشخص الواحد ١٢٠ جنها ! ولا تنس ما ذكرناه قبلا من أن صرعى الجوع فى هذه المدينة بلغوا ٢٩ الفا فى عام واحد .

■ فى شنجهاي ٦٠٪ من الصناعات الصينية كلها .

■ قبل احتلال اليابانيين للمنطقة الأجنبية فى شنجهاي ، منذ عامين ، لم تكن تجبى أى ضريبة على الثروات الثابتة والمنقولة فى هذه المدينة . وسنرى فى الكتاب كيف أن الضرائب تجبى فى أنحاء الصين على كل شىء .

■ كثير من الثروات الضخمة فى الصين حصلت من تجارة الأفيون . ووصل ثمن فدان الأرض فى بعض المناطق المزدحمة بشنجهاي إلى ٣٠٠.٠٠٠ جنيه .

■ وكان صحفى امريكى يصدر جريدة فى شنجهاي ، وكان مقرها فى قسم من أحد العمارات الكبيرة التى يملكها أحد الأجانب . وحدث مرة أن دعا هذا الصحفى ، صينيا كبيرا هو

الدكتور كونج لزيارة الجريدة ، ولما هم الزائر بالصعود في المصعد رفض صاحب العمارة أن يستعمل الصينى هذا المصعد . وأصر على رفضه ، مما دعا الصحفي إلى أن ينقل إدارته إلى بناء آخر . والدكتور كونج تولى رئاسة وزارة الصين بعد هذا الحادث بقليل !

■ وفى الصين أجنى عاش هناك ٣٥ سنة دون أن يعنى بتعلم كلمة صينية واحدة .

■ أجر العامل الصينى المجد فى المصانع ، لا يزيد على ١٥ ريالاً صينياً فى الشهر . والريال الصينى يزيد قليلاً على ٣ قروش مصرية أى أن أجره فى الشهر يبلغ خمسين قرشاً .

■ يشتغل العامل الصينى بين ١٢ و ١٦ ساعة .

■ وطريقة توريد العمال للمصانع هى أن يشتري متعهد من الآباء أبناءهم وبناتهم لقاء جنيه فى ٣ سنوات . ثم يؤجرهم فى هذه المدة للمصانع وبعد أن يتقاضى ما دفعه ومكسبه يترك الباقي للعمال والعمالات . واليابانيون هم الذين يعتمدون على هذا النظام .

■ كانت ميزانية الصين فى سنة ١٩٣٧ - ١٩٣٨ تبلغ ٣٢ مليوناً من الجنيهات أى أقل من ميزانية مصر . وهذا أكبر رقم بلغت ميزانية الصين حتى ذلك الوقت !!

■ وترجع ضالة الدخل القومي إلى إعفاء رؤوس الأموال الأجنبية من الضرائب وسوء نظام المواصلات إلى حد مدهش . فسكك حديد الصين لا تزيد على ستة آلاف ميل . وطول السكك الحديدية في الولايات المتحدة مثلاً ٢٧٥٠٠٠ ميلاً .



أمة السكون

في كتاب « آي كننج » القديم :
« الرجل الذي يمشى فوق ذيل النمر دون أن يعضه
النمر ، هو الذي ينجح . والتواضع يخلق النجاح » .

حكيم الصين

أما الحكيم فهو كونفشيوس ، الذى يعرف اسمه فى أنحاء العالم كما تعرف الصين نفسها . وكما يشوب علم العالم بأمر الصين غموض ملحوظ ، كذلك هذا الحكيم القديم ، أخطأ الناس منه أشياء أولها اسمه ، فقد دعاه أهله وقومه « كونج » ، ثم عظموه بقولهم « فو - تسه » أى الأستاذ المبجل . فلما بدأ الاسم يتدحرج فى التاريخ ، من سهول الصين وهضاب التبت والقرغيز حتى وصل إلى أوروبا ، لم تستطع أن تنطقه إلا كونفشيوس ، فكان كذلك . . . وقديما قالوا خطأ مشهور خير من صواب مهجور ! وأخطاء أوروبا عن شيخ الحكماء تتناول بعد الاسم ، التاريخ والرأى والكفاح من أجل فكرة الخير . حتى أن العلماء المحدثين (١)

(١) أهمهم العلامة زانكبر الذى تخصص فى الدراسات الصينية .

اتهموا إلى أن الدين سبقوا في الكتابة عن حكمة الصين وفلسفتها من جهاذة القرن التاسع عشر كانوا من العوام والأميين .. وهكذا لا ندهش إذا رأينا برنارد شو يزور الصين من أعوام قليلة ، فتبهره عقليتها العميقة ، ونظرتها المهادئة الفسيحة المدي إلى الحياة التي لم تستطع الكتب أن تنقلها إلى الناس ، فيجزم بأن قيادة الفكر ستكون بيد الصين : « هذه الأمة التي يشتري الفرد العادي فيها الحكمة بالجواهر » .

ذلك لأن الستار رفع قليلا عن الصين ، وانفسح ما تحت السطح المشوش الحشن الذي يبدو للكافة ، فإذا كنز نفيس لا عهد للبشرية به ..

وللقدم تأثيره وسحره في وضع المقاييس لرفع الشعوب وخفضها . ولسنا نريد أن نزع أن الصين القديمة قدم الصخور والبحور . كانت أمة جليلة كاملة ، وإلا وقعنا في وهم عظيم . ولكننا نحـب — إذا حكمنا عليها — أن نقارنها بشعوب أخرى عاصرتها ، وزاملتها في موكب الحياة وهي تزحف إلى أمام ..

نشأت حضارة الشعوب حيث جرت الأنهار الكبيرة ، لأن الرى المنتظم للأرض عن طريق النهر ، أعون على الاستقرار من الرى المتقطع عن طريق المطر أو السيل . حضارة النيل وحضارة دجلة والفرات في الشرق القريب ، وحضارة السند والكنج

فى الهند؁ وحضارة نهري الهوانج هو واليانجسى؁ نشأت تقريبا
فى أوقات متقاربة؁ لأن الإنسان استقر؁ وأمن؁ وطعم وروى؁
ولبس وتدفاً؁ ثم أخذ يفكر فى الخلق والابتكار؁ والتعمير
والإنشاء ..

ومضت على هذه الشعوب قرونا طويلة .. عشرون مثلاً أو
أكثر؁ وأخذت سنة النوم تغلب عليها فى شرق البحر المتوسط؁
لكى تظهر فى الغرب دولة جديدة شاحخة هى دولة الرومان؁ وقد
عصمت ضخامة الصين حضارتها فى مشرق الأرض؁ من أن تتحلل
بالسرعة التى تحللت بها حضارة الوسط . وبذا ظل ميزان الدنيا
سليماً يمسكه الرومان من طرف والصين من طرف .

وقد حاول الرومانيون أن يقتحموا آسيا؁ ويلقوا بنظرة
على هذه الأمة الشرقية الصفراء؁ فسار قائدهم بومبى قبل مولد
المسيح بـ ٦٦ سنة؁ ينجب على صهوة الخيل؁ حتى وصل إلى بحر
قزوين؁ متتبعا نفس الطريق الذى سبقه فى سلوكه الإسكندر
ذو القرنين؁ ثم وقف الرومانيون هناك وهم يلهثون إعياء .
وبعد حين أرسلت الصين قوة أيضاً تطل على ما وراء هذا البحر؁
فقد تسامعت عن الرومان وقوتهم . ولكن لم يقدر لها أن تظفر
من العلم بما تريد .

وبين هاتين الدولتين الكبيرتين ، وإلى الشمال حول هذا البحر الفاصل وعند جبال الأورال ، أخذت القبائل الهمجية من الهون والغول والأتراك والتتار تتحرك شرقا وغربا.. أما الصين فقد حمت نفسها إلى حين بحائط عظيم سنقص قصته بعد قليل. وتستطيع أن تدرك أن الصين كانت أرسخ قدما من الرومان ، لأنها ثبتت في وجه أعاصير الهمج ، في حين أن دولة الغرب انهارت على عجل لأنها كانت أقل استقرارا ، أو قل إنها عندما أخذت تستطيب نعيم الحضارة ، وطراوة الحياة ، عصفت بها العاصفة . فقد كان كل مجدها على صهوة الجياد ، وتحت غبار الفتح ورايات الجحافل .

وأما لماذا استقرت الصين ، فلائها كانت بلد الحكمة ، وبلد المصلحين . وصاحبنا كونفشيوس ، ومن سبقه ، ومن لحقه ، كانوا العمدة الرواسى التى اتكأت عليها حياة الصين الروحية والمادية ، فوجدت عندها الأمن والاطمئنان .

فهذا الرجل الجليل ، الذى تحول إلى نبي أو إله ، أو ما تشاء من أوصاف الإكبار والإجلال . فقد ولد وظهر في عصر من أكثر عصور الصين فوضى . فقبل المسيح بأحد عشر قرنا تولت حكم الصين أسرة « شو » الامبراطورية . وفي عصر مقارب لعصر البطالسة في مصر ، وسابق لظهور المسيح بخمسة قرون ،

أخذت الفوضى تدب في أوصال هذا الحكم الطويل الأمد ،
حتى أن عدد الوحدات المستقلة التي انقسمت إليها الصين قاربت
سنة آلاف ولاية .

ومن تحت أنقاض هذه الفوضى ظهر كونفشيوس الذي ولد
سنة ٥٥١ قبل المسيح من أسرة رفيعة الشأن ، ولما تعلم وتزوج
وكلت شخصيته ، أخذ يجوب ولايات الأمراء المستقلين ،
ويدعوهم إلى تنظيم شؤون الحكم في مناطقهم ، والإحسان
إلى الرعية .

وقد وصف تطوره بقوله :

« في الخامسة عشرة كنت أفرغ كل عنائي في الدراسة
« وفي الثلاثين كنت أسير بخطى أكيدة وحازمة فوق صراط الفضيلة
« وفي الأربعين لم يكن بعد لدى أى شكوك أو ريب
« وفي الخمسين كنت أحيط علما بناموس السماء
« وفي الستين كنت أفهم كل ما تسمعه أذنى
« وفي السبعين كانت كل رغبات قلبي متجهة إلى عدم مخالفة أية قاعدة
أخلاقية » (١) .

وفي الوظائف التي تولاها ومنها مدير مديرية ، وسكرتير دولة ،

(١) كتاب الفلسفة الشرقية للدكتور غلاب ص ٢٤٧ . وعنه وعن
تاريخ العالم لويلز رجعت إلى بعض ما جاء في هذا الفصل .

ووزير عدل . كان ناجحا ، حتى لقد زعموا أنه وقت توليه
لوزارة العدل عطل تطبيق القانون ، لأن المحاكم لم تجد من
تؤاخذ من الناس . .

ولكن هذه المناصب لم تدم طويلا في يد الحكيم الصلح ،
لأن الأمراء كانوا يخضعون لصوت البلاط الفاسد ، أكثر مما
يصغون لصوت الحكمة والإصلاح ، فكان كونفشيوس يضطر إلى
الرحلة من مكان إلى مكان ، وكل هدفه أن ينشئ في إحدى
الإمارات حكما قويا ، يحتذيه بقية الأمراء ، وتحقق نظرية
« المدينة الفاضلة » .

وإصلاح الشعوب عن طريق إصلاح أداة الحكم ، كان في
كثير من الأوقات وسيلة الحكماء والفلاسفة . فنحن نسمع مثلا
في العصر القديم أن أفلاطون رحل إلى الطاغية ديونيسيوس حاكم
إحدى مدن صقلية ، لكي يصلحه عن طريق الفلسفة . . وكان
ذلك بعد عصر كونفشيوس بقرن ونصف قرن من الزمان . .
ونسلمع في العصر الحديث أن حكما آخر — هو جمال الدين
الأفغانى — جاب المشرق كلها بحثا عن أمير يصلح عن طريقه
أمة من أمم المسلمين ، ويبث بحكمته روح العدل والتعالى
في بلاط الملوك . .

وكما أخفق جمال الدين ، وأفلاطون ، أخفق كذلك كونفشيوس . وشهدوا جميعاً مرارة الحيرة في حياتهم ، حتى أن حكم الصين قال في آخر عمره : « هذه منيتي قد حانت ، ولما أجد بعد ملكاً ذكياً الفؤاد ألقنه تعاليمى » .

ولكن كونفشيوس كان مجتهداً ، لأنه أنفق قطعة طيبة من حياته فى الكتابة والتأليف . . بدأ فخلص كل حكمة القدماء السابقين وكتبهم المقدسة ، وبذا صان أعظم تراث فكرى ظهر فى العالم القديم . ثم علق على هذه الكتب بما شاء . وألف بعد هذا كتباً ضمنها مذهبه فى الحكم والأخلاق والفلسفة :

وتعاليم هذا الرائد القديم فى الضمير الإنسانى تتلخص فى معرفة الواجب ، والاحتمال ، والاعتدال ، أو البعد عن التطرف . . « حينما تكون النفس غير مهتاجة بأحاسيس حب أو غضب أو حزن أو سرور فهى فى حالة الاعتدال . وحينما تتولد هذه الأحاسيس فى النفس دون أن تتجاوز الحد المعتدل فالنفس فى حالة انسجام . . فالاعتدال هو الأصل ، والانسجام هو القانون العام » .

وقد تحدث كونفشيوس فى تعاليمه عن الاجتماع ، ونص بحزم وإلحاح على ضرورة رعاية آداب اللياقة بين الأفراد ، حتى أنه أسمى ابنه « لى » ومعناه « أدب اللياقة » . وهذه الدعوة لأن

يكون الفرد مهذباً لطيف المعشر من الناس ، هي نوع من
أرستقراطية الأخلاق ، سارت عليها الأمة الصينية . . ومكنت
في نفسها فضائل جليلة أهمها الصدق ، والأمانة ، وتوقير الكبير ،
وتدعيم بناء الأسرة .

وظهر غير هذا الحكيم آخرون متفاوت مذاهبهم ، وأهمها على
كل حال مذهب بوذا ، ومذهب لاو - تسيه . وكلها تلتقي عند
نقط معينة ، يؤمن بها الصينيون ، وتطبع أخلاقهم على
طابعها . .

وإذا وجدت قوانين الأخلاق ، وتهذيب النفس ، فقد
وجدت الشعوب مدداً من الحيوية يقيم أودها في مخائنها القصيرة
والطويلة . .

وبهذا نضيف إلى كل ما تقدم من عوامل جمعت الصين
العظيمة الحجم، الوفيرة السكان في أمة واحدة ، عاملاً آخر لا يقل
أهمية ، وهو مثلها في الخلق والتكوين النفسى والاجتماعى ، التى
أوجدتها هؤلاء الهداة السابقون .

وإذا قلنا إن الصين الحديثة ظلت أمينة على قديمها ، فسرى
مظهر هذه المحافظة في كل صفحة من صفحات الكتاب . .

وتلخص « العقلية » الصينية في كلمات وردت في كتاب
« شو - كينج » القديم :

- « الاعتراف بالجميل مع الجدد »
- « والتلطف مع الثبات »
- « والحكمة مع البساطة »
- « والحزم في السلطان مع الحكمة »
- « وسهولة الاتقياد مع القوة »
- « والصلابة في الاستقامة مع الوداعة »
- « والرحمة مع التمييز »
- « والشدة مع الإخلاص »
- « والشجاعة مع العدل » .



فنان نمرود - الامريكية لمدة - حسب الممارضات شانه كاي شيك . وتتم: كذا: عدد



ثورة الصحراء

ذكرنا في الفصل الماضي ، أن العالم القديم أحيط بدولتين قويتين هما الصين — التي ظلت باقية — والرومان الذين ظهوروا وارتفعوا ثم انهك بنيانهم مع الزمن . .

وذكرنا أن سكان الجبال حول بحر قزوين وفي شماله تحركوا شرقا وغربا ، وطرقوا أبواب هذه الدول .

ونضيف هنا إلى هذه العوامل التي كان يضرب بها جوف العالم القديم بين جدار الصين العظيم ، والمحيط الأطلنطي ، عاملا هاما ، قويا ، هو ثورة الصحراء الفتية القوية الجبارة ، التي تمثلت في الإسلام . .

عرف العرب بلاد الصين من قديم عن طريق التجارة البحرية والتجارة البرية . وهناك آثار تدل على أن هذه الصلات وجدت قبل الإسلام بقرن . فلما بدأت الرسالة المحمدية تنتشر في الجزيرة

العربية أثناء حياة صاحبها ، كان رسول الله يدعو إلى طلب العلم ولو في الصين . وكما بحث هذا الحديث سامعيه على طلب العلم ، فإننا نفهم منه أيضا أن الصين كانت بلادا بعيدة ، وكانت أيضا بلادا عالمة تستحق أن يهاجر إليها الناس ليتلقوا عنها الحكمة . .

ولكن هل اكتفى رسول الله بذكر الصين في هذا المقام فقط ؟ أما التواريخ العربية المدونة المعروفة ، فلم تذكر شيئا أكثر من هذا . ولكني سمعت من الأستاذ الثعالبي^(١) رحمه الله أن في الصين عقيدة شائعة ، وهي أن أول مسجد أسس في الإسلام إنما أسس في الصين ، واسمه مسجد سعد بن أبي وقاص ، وذلك لأن سعداً رحل إلى الصين ، ودعا ملكها وقومها بدعوة الإسلام ، فأقبل عليه كثيرون وأسسوا مسجدا ، وفي نفس مكانه يقوم الآن مسجد بهذا الاسم رأيت صورته معه .

وكما قلت ، فنحن لا نعلم أن سعداً كان من بين رسل النبي إلى الملوك . ولكننا نعلم أنه ليس هناك ما ينفي أن يكون

(١) الزعيم الإسلامي الرحالة السيد عبد العزيز الثعالبي ، كان من أكثر أعلام العصر الحاضر شغفا بالرحلة والتنقل ، وقد زار جميع بلاد الإسلام ومنها الصين ؟ وتوفي رحمه الله في هذا الشهر الذي نكتب فيه هذا الكتاب ييلاده تونس .

النبي قد فكر في ملك الصين ، فملكته كانت أكبر ممالك الدنيا
في ذلك العهد . .

وسواء صحت هذه الرواية أو لم تصح ، فقد أثبت التاريخ أن
الصين لعبت دورا معينا في تاريخ الفتوح الأولى . فعندما هوت
البلاد الفارسية تحت قبضة الإسلام فرّيزدجرد إلى سلطنة فرغانة ،
ومن هناك كاتب ملك الصين العظيم «تاي تسونج» يطلب نجده
لاستعادة ملكه . ومات يزدجرد دون أن تصل له مساعدة الصين .
وفي نفس الوقت الذي كان ملك الصين يتأمل في هذا الحادث
الذي هوى بعرش الأكَاسرة ، جاءه مندوب من قبل قيصر الروم
ينقل له خبر استيلاء العرب على معظم الامبراطورية الرومانية ،
فرأى ملك الصين أن الأمر أخطر من أن يندب له — إن
أراد — قوة بوليسية تنزّه نزّهة عسكرية في غرب آسيا ،
فقرر أن يتابع درس هذه الحركة الجديدة .

وتولى خلفه فيروز المطالبة بعرش الأكَاسرة ، وأرسل إلى الصين
يطلب نفس النجدة التي طلبها والده ، فإذا بملك الصين الشهير
مات ، وتولى مكانه ابنه كاو تسنج ، الذي اعتذر عن تقديم هذه
المعونة : ولكنه قرر في نفس الوقت أن يوفد بعثة إلى المدينة
المنورة تنقل له الخبر اليقين عن أمر النبي محمد وهذا الدين الجديد .

خفأت البعثة في عهد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، ولقيت عنده الخبر اليقين . .

ورد أمير المؤمنين على هذه السفارة بمثلها . وفي سنة ٦٥٠ ميلادية كانت مدينة سيانغو ، تشهد استقبال رسل الخليفة ، والحفاوة الفاتقة التي أعدها لهم أهل الصين في عاصمته . وهكذا بدأت الصلات الودية بين أقدم إمبراطورية وأحدث إمبراطورية في ذلك الوقت .

ولكن قبل أن ينقضي نصف قرن على هذه السفارة ، كان توسع المسلمين في وسط آسيا ، قد بدأ يستثير أطراف الصين . وقد حدث اصطدام بين قوة يقودها ابن أخ للأمبراطور الصيني ، وبين جيش القائد الإسلامي العظيم قتيبة بن المسلم . ولم يلبث هذا الصدام أن انجلى عن فرار الأمير الصيني وتأمين الحدود الإسلامية في شرق خراسان .

ويظهر أن شهرة قتيبة كانت قد طبقت آفاق الشرق البعيد وأنه بعد أن استولى على بخارى وخوارزم أحب أن يقتحم حدود الصين الأصلية . وتزعم الروايات أن إمبراطور الصين علم أن قتيبة يريد قطعة من الصين ، وجزية ملكها ، برأبقسم أقسمه ليستولين على أرض الصفر . فأرسل الإمبراطور حقبة من تراب

بلادهم وحقيبة من النقود ، وبذا يبرق قتيبة بقسمه ، ولا يدخل مع الصين في حرب (١) .

ولم تهمل المراجع العربية الإشارة إلى تدخل وحدات صينية في صراع العباسيين للأمويين ، عندما ثار أهل بخارى والصغد وفرغانة ، بمساعدة « ملك الصين » ، ولكن هذا التدخل كان محدودا ، إلا أن كلا من الدولتين : الصفراء والسمراء ، إذا صح أن نطلق على دولة العرب لونها ، كانتا تحسان بعضهما ببعض إحساسا كاملا . .

ولكن الصلات الحسنة بدأت توجد بين الحكومتين في عهد العباسيين . فهذا الخليفة العظيم هارون الرشيد ، الذي طالت يسراه شرملمان في فرنسا ، مد يده إلى امبراطور الصين ، وأرسل له السفراء (٢) ، ووطد معه دعائم الصداقة . . ولا عجب ، فقد بدأ الإسلام يغزو الوثنية الصينية ، ويتخذ لنفسه مقاما ملحوظا فيها . وإن كان مؤرخو المسلمين القدماء قد أهملوا كل إشارة إلى هذه الصلات ، اللهم إلا أن تكون حربا أو مناوشات على الحدود .

(١) كانت الحملة على حدود الصين في عامي ٩٤ و ٩٦ هـ .

(٢) تاريخ الخلافة لموير ص ٤٨٥ .

وسار تاريخ الإسلام في الصين يبحث الخطأ ، ويسرع في
الزحف والتقدم ، حتى وصل إلى مركز ممتاز في الكتلة الصينية .
ومنذ أقل من قرن أخذت النهضة العالمية الإسلامية تنتعش ،
فأنشئت لها المعاهد العالية ، ولفتت لها أنظار العالم ..

ولا عجب أن يذكر الأستاذ إسحاق ماسون في كتابه عن
مسلمى الصين أن اللون الأبيض في الراية الصينية يمثل الأمة
الإسلامية الموجودة في داخل الحدود الصينية .



ولنذكر كلمتين عن دخول المسيحية إلى الصين ..

لم تعرف المسيحية طريقها إلى الصين أول ظهور المسيح أو
بعده بقليل كما صنع الإسلام ، ولكنها وصلت إليها في القرن
السادس على يد قسيس جرىء ذكى الفؤاد ، هو الراهب
نستوريوس ..

إلا أن المؤرخين متفقون على أن المسيحية كانت بطيئة
الانتشار في الصين ، ذلك لأنها جاءت بمبادئ الرحمة والمحبة
والزهد ، وهى مبادئ معروفة قديمة راسخة في نفوس الناس هناك ،
دعا إليها دعاة سابقون على المسيح بكثير .

ومع هذا فالدأب يصل بصاحبه فى نهاية الأمر . وقد كالت
البعثات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستنتية كفاحاً طويلاً
لنشر دينها ومذاهبها . وبعد أربعة عشر قرناً من دخول المسيحى
الأول إلى تلك البلاد ، أصى أتباع عيسى عليه السلام (عام
١٩٠٦) ، فكان الكاثوليك مليوناً وثلاث مليون ، والبروتستنت
ثلاث مليون ..

إلا أن المسيحية ظفرت بشخصيات عظيمة الأثر فى تاريخ
تلك البلاد ، فأبوتورها الحديثة الدكتور صن يات - صن
مسيحى . وزعيم الصين الحالى ، شيانج كاي - شيك ، مسيحى
أيضاً ..

وتعيش المسيحية بجوار الإسلام هناك فى إزاء تام ، ويمجد
كل دين منهما فى اقتطاع جزء من البوذية ، التى يبدو أن صوتها
قد أخذ يخفت ، بعد تقدم العلم ، ورقى العقل البشرى . الحديث .
فهذه للعباد ذات التماثيل والتهاوليل لم تعد تجتذب أفئدة الناس ،
وكثير من كهانها وكاهناتها فى حالة بؤس وكفاف .

ومع هذا فىمكن أن نقول إن الإسلام الصينى متلون بالمثل
الأخلاقية التى تركها حكماء الصين العظماء وأولهم كونفشيوس ،
ومن بعده منسيوس .

وهذه الطبيعة الهادئة الساكنة . العظيمة التأمل في عالم
الباطن ، هي نفسها طبيعة الإسلام الصيني ... الصين كانت ،
ولا تزال ، وستظل ، بلدا معتدالا ، والبعد عن الإصراف
والتطرف ..

امرات جسام

وقبل أن تطوى صفحة الماضي ، نحب أن نقف وقفة قصيرة عند اسم في تاريخ الصين ، لا تقل شهرته عن شهرة حكمائها العظام ، وهو الملك شي - هونج - تي ، الذي عاش قبل المسيح بقرنين ، ولم يطل حكمه أكثر من خمسة عشر عاماً ، ومع هذا فقد قرر أن يلغى تاريخ الصين السابق عليه - وهو تاريخ ثلاثين قرناً أو نحوها - وأن يكون هو الامبراطور الأول . . . فماذا عمل ؟

بدأ فأحرق الكتب القديمة ، وهذه غلطة كبرى . ولكن كانت تتجه إلى إحياء أدب جديد ، ومثل مبتكرة يحتذيها الناس ، ولا يتأثرون بالماضي الذي دخلته خرافات كثيرة . أحرق كتب الفلسفة والأدب ، وأبقى على كتب الطب ، والزراعة ، والفلك . .

ولكى يضع أساساً لأمن الصين ، أنشأ هذا الحائط العظيم الذى يسمى سور الصين ، كى يرد غارة المغول عن بلاده .
وهذا السور ليس أمراً عادياً ، ولكنه أحد أعاجيب الدنيا ، وكان من أكثرها نفعا ، وإذا قورن بأهرام الفراعنة فإنه يفضلها ، لأن الأهرام انتفع بها ملك ، وحققت فكرة دينية لفترة محدودة من الزمن . أما السور الصينى فقد انتفع به مئات الملايين على مرقرون طويلة متعاقبة .

وطول هذا السور ٢٥٠٠ ميل ، وحسبنا أن نذكر امتداد الحصن لهذه المسافة الهائلة لى ندرك مدى ما أحدثه حكم هذا الملك الحازم من التنظيم الكبير فى بلاده ، والمقدرة على التشييد التى لا تبارى .

وقد رأى أهل الصين أن يكرموا ملكهم هذا ، فأسموا بلادهم باسمه « شى » ، ومنها الشين China ، وألقوا أنفسهم جميعا به ، فهم من سلالة .

ومن حسن الحظ أن محرقة الكتب التى قام بها هذا الملك لم تصل إلى كل مكان ، فقد أخفى رجال الدين فى معابدهم الكثير منها ، وإلا لما عرفنا كونفشيوس ومنسيوس وغيرهما .
وبعد حكم هذا الامبراطور توالى الحوادث ، ولكن أعاصير

المغول لم تقف دائما عند سور الصين ، ففي الوقت الذى كانوا يجتاحون فيه مشرق الدنيا ، تمكنوا من إيجاد ثغرة في الحصن الكبير ، ونفذوا إلى سهول البلاد ، واستولى جند جنكيز خان على بكين عاصمة الصين عام ١٢١٤ م ، وتأسست في الصين دولة مغولية .

إلا أن الصين كانت كالإسفنجة العظيمة ، فامتصت هؤلاء الغزاة ، ولم تلبث الأسر الصينية الحقيقية أن عادت إلى الحكم ، وآخر أسرة كانت أسرة المانشو التى أسقطتها الثورات الدستورية التى اجتاحت العالم فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن . وفى الوقت الذى كان حكم سلطان البرين ، وخاقان البحرين ، عبد الحميد ، ينتهى فى تركيا بإقرار حق الشعب سنة ١٩٠٨ ، ويتنازل عن عرشه ؛ كان عرش الصين القديم العظيم . . . عرش ابن السماء ، وابن المطر ، وابن ماتشاء ، يتزلزل ، وفى سنة ١٩١١ انهار حكم الأباطرة ، وأعلنت الجمهورية الصينية تحت رئاسة المجاهد الصينى الأول فى العصر الحديث ، صن يات - سن

« Sun Yat - Sen »

ولاء الشعب

قال كونفشيوس :

« تقوم الحكومة على ثلاث :

« ١ — طعام يكتفي الشعب

« ٢ — وقوة حرية تنوّد عن الشعب

« ٣ — ولاء من الشعب لحكومته .

« فإذا كان ولا بد من الاستغناء عن أحد هذه »

« العوامل ، فلنستغن عن القوة الحربية ، ونستبقى طعام »

« الشعب وثقته بحكومته . فإذا اضطررنا إلى المفاضلة بين »

« الطعام ، وبين الولاء ، فاني أؤثر ولاء الشعب . ذلك »

« لأن الجوع يميت أفرادا من الأمة ، وأما فقد الولاء »

« فإنه يميت الأمة نفسها » .

غبار كَيْف

ظل عرش الصين موطن الأركان خمسة وأربعين قرناً كاملة .
اختلفت عليه أسر قليلة ، أقل من أصابع اليدين ، ولكن تقاليدهم
بقيت ؛ ونظامه لم يتبدل ، في قليل أو كثير . فلما تدمرت
الصين ، وأدركها الملل ، قررت أن تعدل عن هذا النظام إلى
غيره .. فثارت ، وهدمت بناء شيدته هذه القرون الطويلة ..
في مائة يوم فقط !!

ما أصعب البناء وأشقه .. وما أسهل الهدم وأخفه ! !
حقيقة كانت الامبراطورية عجوزاً ، ليس كمثلها عجوز
في التاريخ . فقد أتهك طول العمر قوى مصر بعد ألفين من
السنين ، واحتاجت إلى مثلها من النقاها وتجديد الشباب .
أما الصين فقد استمرت إلى حفنة من السنين مضت ، حتى
هرمت ، وتهدمت .. بل تعفنت فيها أداة الحكم . ولم يحتج

هذه هذا النظام إلى أكثر من عصابة من الرجال ، وبضع
« أوقيات » من القوة والعزم المصمم .

وهذا ما حدث . وهذا بذاته ثورة على الحكومة
الامبراطورية — امبراطورية ابن السماء — وثورة أيضا على
تعاليم كونفشيوس ، ومدرسة الفلسفة القديمة ، التي كانت ترى كل
شيء ممكنا ، إلا الاعتداء على حق الحاكم . حتى لندرى كل شيء
كان يجوز في شريعة الصين القديمة .. فقد القوة الحربية ،
والجوع .. بل الموت جوعا ، إلا أن يحدث إخلال بحق الحكومة
للمقدس في السيطرة على الرعية .

فلما ثار ، نبى الوطنية الصينية الجديد ، الدكتور
صن يات - سن ، كان لا بد من تفسير لجرأته على مقدسات
الصين .. وجاء التفسير على عجل ، فقد تلقى علمه على الطريقة
العربية واعتنق الدين المسيحى ..

ولنسأل .. هل نجح ثائر الصين الأول في تخليص بلاده من
فساد حكم طال عليه الأمد ، أم أخفق ؟

نجح الدكتور «صن» وأخفق . فقد أنشأ الجمهورية ، ولكنه
ذاق خيبة أليمة مريرة في حياته ، لأنه عاش بعدها أربع عشرة سنة
والصين تغل كالرجل ، ولا يستقر لها قرار . ومات سنة ١٩٢٥ ،

ولم يستطع الحزب الأول والأكبر الذى أنشأه فى الصين ، وهو « الكومنتانج » "Comintang" ، أى حزب الشعب الوطنى (١) أن يوجد حكومة مركزية تنسيطر على كل أنحاء الصين .

ولكن لو أن الأجل امتد به أربعة عشر عاما أخرى لما أدركت هذا الرجل الجبار لدعة الأمى التى مات بها ، لأن رفع الأنقاض التى تخلفت من هذا البناء الهائل الذى تداعى تحت قبضته ، كان يحتاج إلى وقت أطول مما قدر له . . وفى أثناء إزالة هذه الأنقاض كان لابد أن يزكم الأنوف ويؤذى العيون غبار كثيف يتطاير حتى يحجب وجه السماء . .

كيف ولدت الجمهورية ، وما الذى حدث فيها ، أو على الأصح ما الذى حدث لها ؟

ولد الدكتور صن ، طفلا فقيرا بائسا ، فى جنوب الصين عام ١٨٦٧ . وتلقفته البعثات التبشيرية ، فتنصر ، وتعلم ، ودخل أول مدرسة للطب أنشئت فى هونج كونج ، وكان أول طبيب نال إجازة منها . ثم اشتغل بالسياسة ، وظل ٢٠ سنة يجاهد فى الصين

(١) يتألف اسم هذا الحزب من ثلاثة متاعل أو كلمات : « كو » أى وطن ، و « مين » أى شعب ، و « تانج » أى حزب .

وفي المنفى لإنشاء وتدعيم حزب الكومنتانج . وقد غلظ أمره ،
وبأن خطره ، فنفى ، ولكن نفوذه زاد قوة حتى أن الامبراطور
أعلن عن جائزة قدرها ١٠٠.٠٠٠ جنيه لمن يعود به إلى الصين ،
فاختطفته عصابة صينية من قلب لندن ، ولكن أدركته نجدة
البوليس الإنجليزي في آخر دقيقة .

ونضجت الثورة في أواخر سنة ١٩١١ ، ونجحت في سنة
١٩١٢ . وعاد الدكتور صن إلى بلاده ، مثلما عاد مزاريك من
منفاه ، ليتولى الأول رئاسة جمهورية الصين ، وليتولى الثاني
رئاسة جمهورية تشيكوسلوفاكيا . وكل الفرق بين الرجلين ، أن
أولهما عاد من لندن ليتولى رئاسة أكبر جمهورية في العالم ،
وعاد الثاني من واشنطن ليتولى رئاسة جمهورية صغيرة في أوروبا .
وارتفع الدكتور صن في أعين قومه ، تماما كما ارتفع
كونفشيوس . وربما كان الرجل التالي له في تاريخهم كله . ولما
أدركته علة السرطان التي قضت عليه ، أصبح قبره — كقبر
لينين — مقصد الزائرين والطاقئين من أنحاء الصين ، وأسميت
باسمه العاصي [شونج - شان] آلاف المدن والشوارع في الصين (١) .

(١) يوجد في الإنجليزية قاموس لأعلام الأحياء . ولما مات الدكتور
صن أسقط القاموس اسمه . فاحتجت الصين احتجاجا عنيفا على مؤلف هذا
القاموس الصهير فأعاد اسمه . وكان العلم الوحيد المذكور من الأموات .

وقد لخص الدكتور صن مبادئ حزبه في ثلاث : الوطنية ،
والديمقراطية ، ورفاهية الشعب .

والوطنية عنده هي إلغاء الامتيازات ، والتدخل الأجنبي ،
وبسط سلطة الحكومة الصينية على كل أرض الصين .

والديمقراطية هي دعوة الشعب لانتخابات حرة ، كي يرسل
مندوبيه الذين يُشرعون ، ومن بينهم ينتخب الحاكمون .

ورفاهية الشعب المادية تتحقق من الأخذ بنصيب من النظم
الاشتراكية يزدهر به اقتصاد الأمة ، وتوزع ثروتها توزيعاً عادلاً .

وقد أعلنت هذه المبادئ بهذا الإيجاز وهذا الوضوح عام
١٩٢١ . وحتى ذلك الوقت لم تكن الديمقراطية قد عرفت في
الصين ، ولا وجدت لها كلمة في لغتها .

وكان الدكتور صن رجلاً عالياً الوطنية ، مثالي الكفاح .
عملى النظرة إلى الحياة . وحسبك أن تعلم أنه بعد أن أعلن
برنامجاً قرر أنه لا يتحقق هذا البرنامج إلا إذا وجد في الصين
١٠٠٠٠٠٠ ميل من السكك الحديدية ، ومليون ميل من الطرق
الأرضية ..

ووقفت أوربا من هذا الرجل المجاهد ، على رأس أكبر أمم

الأرض ، موقفا مغزيا . لأنها كانت تخشى أن تتحقق أحلام
صن ، فترتقى الصين ، ويقضى على امتيازات دولها ..

ولذا وجه الدكتور « صن » وجهه شطر روسيا السوفياتية ،
فأرسل رجله الأول « شيانج كاي - شيك » إلى موسكو ليعقد
أول محادثة معها .

وعلى الرغم من حاجة زعيم الصين لمعونة روسيا ، إلا أنه كان
قويا .. لأنه كان بطلا . فتحالف دون أن يدفع الثمن . وقرر في
معاهدته مع مندوب روسيا :

« يقرر الدكتور « صن » أن النظام الشيوعي ،
« والنظام السوفياتي لا يمكن تطبيقهما في الصين .
« لأن الظروف التي أدت إلى اعتناق روسيا لهذه
« النظم ونجاحها فيها لا توجد في الصين .
« وتشاطر الحكومة السوفياتية حليفها الصين في
« هذا الرأي : وترى أن أعظم مشكلة تواجه
« الصين ويجب أن تتوفر على حلها هي تحقيق
« وحدتها الوطنية ، وبسط ساطتها الكاملة على
« أرضها بوصفها دولة مستقلة . »

وأقبل على الصين المستشارون الروس ، مثل ميخائيل بورودين .
ولكن هذا الاحتياط الذى وضعه أبو الجمهورية الصينية لم يحل
دون أن تسقط على ثوب الصين بقع حمراء من الشيوعية . وما
لبت هذه البقع أن اتسعت حتى تحولت إلى حكومة فى «هانكو» :
ولكن خليفة الدكتور صن — وهو المارشال شيانج —
جاهد للقضاء على هذه النزعة .. لأنه كان وطنيا ..



أُمراء الحرب

تولى الدكتور « صن » رئاسة الجمهورية الصينية لفترة قصيرة بعد إنشائها . ذلك أن روح الصين القديمة المحافظة لم تكن قد ماتت تماما في ثورة المئة يوم . فقد اضطر إلى أن يتخلى عن الحكم لأحد رجال العهد القديم « يوان شى - كاي » ، وحل البرلمان وسط ضجيج من بعض الناس الذين راحوا يصفون الدكتور صن بأنه خيالي حالم . . . وهكذا لم تكن الصين أول أمة ترجم أنبياءها بالحجارة !!

واضطر الزعيم الشعبي إلى أن يعلن الثورة على خائفي الثورة ، وغرقت الصين في بحر من الدماء ، ومات مئات من أتباع الدكتور صن على أعواد المشانق .

واستبدلت الصين الامبراطورية بدكتاتورية . ثم قامت الحرب العالمية الماضية .

والحروب مفارقات عجيبة . فقد كانت بين إنجلترا واليابان
محالفة ، اتكأت عليها حكومة طوكيو ، وأعلنت الحرب على ألمانيا
لكي تنتزع المراكز الألمانية في الصين ، وتضيف إلى قوتها
معادل جديدة . وقد كرهت إنجلترا هذه الحركة ، ولكنها لم تستطع
أن تتفادها ، وكأنها كانت تشم. ربح المستقبل ، فبعد ٢٧ سنة
وثبت اليابان من هذه المراكز على أملاك إنجلترا وأمريكا في
البحار الآسيوية . .

وكانت شهية اليابان مفتوحة في الحرب الماضية ، فبعد
استيلائها على المعادل الألمانية . ففي سنة ١٩١٥ قدمت إلى حكومة
« يوان » مذكرة من واحد وعشرين مطلباً ، لو أنها
تحققت لما زادت الصين عن أن تكون مستعمرة يابانية .

وكان مجرد تقديم هذه المطالب فرصة أثارت الحنق الأكبر
على هذه الحكومة الجديدة ، التي كان سيدها يستعد لأن يجلس
على عرش الأباطرة . وتبخرت فكرة الامبراطورية ، ولكن
الثورة ظلت مستمرة تنتشر ألسنتها الجراء من مكان إلى مكان ،
ولم يوقف الأمور عند حد مؤقت إلا موت « يوان » . .

وتولى مكانه حاكمان ، أحدهما في رئاسة الجمهورية ، والثاني
في رئاسة الوزارة . أما الأول فكان مخلصاً للبداية الديمقراطية

متمسكاً بها . وأما الثاني فكان من رجال الحرب ، لا يؤمن لهذه البدع التي يراد حمل بلاده عليها .

وهكذا ظلت الجمهورية تضرب بين أيدي الطامعين في النفوذ والسلطان ، الحاقنين عليها وللمتمسكين بها . وأخذت العصابات العسكرية تتألف في أنحاء الصين الفسيحة ، وكل رجل من أصحاب الإقطاع يدعى لنفسه قيادة ، وحكومة ، ويحاول أن يحدث انقلاباً . . . وهكذا انقلبت الصين إلى أتون يأكل بعضه بعضاً . .

وفي وسط هذا الضجيج المتعالى من جنابات الصين ، وفي وسط وثبات سادة الحرب وتجارها ، كان الدكتور « صن يات - سن » يدأب على نشر الفكرة الدستورية ، ويجاهد في صبر وإصرار على أن يصدر الدستور الذي كانت تعد مبادئه من سنة ١٩١٥ . . وبعد تسع سنوات أي في عام ١٩٢٤ صدر الدستور (بعد صدور الدستور المصري الحديث بعام واحد) .
و بعد عام مات الدكتور « صن » كما ذكرنا .



ولكى نأخذ صورة صحيحة عن حالة الصين في هذه الفترة من الفوضى الخفيفة ، التي ساد فيها نفوذ أمراء الحرب ، ننقل

نبدأ من رحلة الصحفي الأمريكي الشهير «ميلز فون Miles Vaughn» في الصين خلال هذه الفترة^(١) ، وكان مديراً لشركة الأنباء المتحدة الأمريكية في الشرق الأقصى . . قال :



نشأ نظام أمراء الحرب في الصين — فيما أعتقد — كنتيجة لطريقة الحكم التي سار عليها « يوان شي - كاي » . فقد أحاط نفسه بعدد من القواد القادرين ، ودرب جيشا كبيرا ، وأخذ يتتيز الفرصة لينصب نفسه امبراطورا . وكان هذا النظام غير ضار طالما كان منشئه حيا . فلما مات لم يترك من بعده من يخلفه عليه ، وبدلا من أن يدين هؤلاء القواد بالطاعة لحكومة مركزية ، آثروا أن يخدموا أنفسهم ، ويستجيبوا لمطامعهم الخاصة . فاقسم الأقوياء النفوذ أو تخاصموا عليه ، وانضم لكل واحد منهم القواد الأقل مقدرة .

وتركز جهاد حزب الكومنتانج في كفاح نفوذ العسكريين ، وإعادة الوطن إلى وحدة متناسقة تخضع لحكومة مركزية واحدة . .

(١) اسم كتابه Covering the Far East

وفي سنة ١٩٢٩ تمت برحلة إلى بكين ، وكانت هذه العاصمة هادئة ، ومخازنها التجارية مفتوحة . وأنفقت زوجتي الأسابيع التي أقناها هناك في مشتري ما يروق لها من نفائس الصين حتى عبات ٦٦ حقيبة !! ولما قررنا العودة أرسلت أحد غلمان المكتب (توكيل شركته التلغرافية) إلى محطة سكة الحديد مع متاعنا . وبعد فترة من الزمن عاد يقول إن السفر إلى نيانتسن يقتضينا صرائب بديية على هذا اللتاع . فذهبت إلى المحطة لأرى ما هنالك ، وإذا بالصرائب المطلوبة ١٠ ٪ من قيمة حقائبنا . فاضطرت لأن أتوجه إلى الحاكم—وكانت لي به صلة—فأعفاني من الضريبة. وحصلت منه على جواز سفر حر بي يسهل لي اجتياز المناطق المختلفة .

وفي الطريق إلى نيانتسن وقف القطار عند محطة متوسطة ، وأمر الجنود جميع الركاب بإخلاء القطار . وخيل لي أن الجواز الحر بي الذي حصلت عليه من الجنرال « ين » سيجنبني متاعب لا طائل تحتها ، فأطلعت الضابط عليه ، فقال لي إن هذا الجواز لا يغنيني شيئا ، لأنني هنا في منطقة الجنرال « فنج » ، ولا بد من دفع ١٠ ٪ من قيمة اللتاع . .

ودفع جميع الركاب ، وظللت أجادل ، وأخيرا تغلبت على

هذه العقبة بأن رشوت الضابط بزجاجة نبيذ ، وبوعد أن أحصل من قائده على تصريح إعفاء من الضريبة !!

وأخيرا وصلنا إلى تيانتنسن في العسق . وكانت تهب في هذا الوقت عاصفة ممهله بتراب يستحيل على الإنسان معه أن يتنفس . فأسرعت بزوجتي من القطار إلى تاكسي ، لكي تذهب إلى الفندق ، على أن ألحق بها على عجل بعد حمل المتاع إليه .

وتبين لي أنني أيضا في منطقة الجبال « فنجج » ، وأنه لا بد من دفع ١٠ ٪ من قيمة حقائي ، مثل جميع الركاب الذين دفعوا الآن لثالث مرة .

فأخذت أجادل ، وأحاور في غير جدوى ، وأنا في شدة الانفعال من حجزى في هذه العاصفة لكي يطبق على نظام من أجراً أنظمة التلصص في العالم . وزاد ضغط التراب على ، واستبد بي الغضب ، عندما نفخ الضابط في صفارته ، فأقبلت ثمرذمة من الجند الممزق الثياب لإكراهى على ما يريدون . وكانت عصاى في يدي ، فدفعت جانبي الضرائب الذى كان يكتنفى في صدره ، فسقط يتدحرج بين حقائى ، ثم انهلت عليه بعصاى ، ورفسته بقدمى ..

وكان هذا العمل منى وسط جند مدججين بالسلاح انتحارا
محققا لم أدرك حقيقته ، ولا فكرت في عواقبه .

ولكن كم كانت دهشتى عظيمة عندما وجدت الجند بدلا
من أن يصبوا إلى سلاحهم قد ففروا أفواهم عجبا ، ثم راحوا
يقهقهون بأصوات منكرة ..

ذلك لأن سقطة صاحبهم على الأرض ، قد ألحقت به العار ..
أو كما يقول التعبير الصينى الحرفى « أفقدته وجهه !! » .



وأما كيف يفقد الصينى وجهه ، أو يحس بأن العار قد لحقه ،
فهذا طبع صينى أصيل ، ومزاج خلقى مركب من فضائل ونقائص
متعددة .. وقد ذكرنا قبل أن حكيم الصين الأكبر كونفشيوس
نص على أن يكون أدب المجاملة من أهم قواعد الأخلاق فى الجماعة
الصينية . وترتب على تأصل هذه العادة أن أصبح الصينى شديد
الحساسية بكرامته ، وبرأى الناس فيه . فإذا حدث حادث نجم
عنه أن يتخذه ناموسه ، أو ينتقص من مكانته بصورة من
الصور ، فإنه « يفقد وجهه » أو يلحقه العار . ويستوى أن يكون
الحادث وقع من الفرد فاستصغره الناس من أجله ، أو حل به من
غيره ، فصغر فى أعين الناس .

ولكى ندرك هذه الطبيعة على حقيقتها ، يحسن أن نضرب لها أمثلة :

ذهب صحفي كبير لمقابلة أحد القواد ، وكان حاكماً لمقاطعة كوانج تونج ، وبقي مع القائد ساعة ، وكان زوار آخرون في الانتظار . فلما خرج قال له أصدقائه من الصينيين : « لقد مكثت ساعة كاملة . إن لك (وجهاً) عظيماً » .

وسنرى بعد حين تاريخ حياة المارشال شيانج كاي - شيك ونذكر قصة اختطاف أحد القواد له . ولكننا نقطف هنا من هذه المأساة حادثة ، وهى أن المارشال لم يتناول وهو فى أسر خاطفه لقمة واحدة من الطعام ، لأنه لو فعل « فسيقفد وجهه » أى يلحقه العار ..

ولما زار جون جنتر الصين ، كان وزنه ٢١٠ أرطال ، ووزن زوجته ١١٠ رطلا فقط . وقد رفض « الكولى » الذين يسحبون العربات الصينية المعروفة بالريكشا ، أن يحملوا السيدة وتزاحموا على حمل السيد لأن وزنه أكثر ، وجر من يقل وزنه يفقد « الكولى » وجهه .

وتحدث أحد رجال التمثيل الأجنبى فى الصين قائلاً إنه عندما كانت تسد أمامه جميع المسالك للحصول على ما يريد ، كان يهدد

بأنه « سيفقد وجهه » أمام حكومته ، فيلبي طلبه .
وكان أحد الضباط الألمان يدرب الحرس الخاص بالمارشال
شيانج . ووبخ مرة أحد الجنود أمام زملائه لأنه سرق شيئا ، فما
كان من الجندى إلا أن انتحر ، لأنه « فقد وجهه » بطريقة
لا إصلاح لها . وهذا على الرغم من ندرة حوادث الانتحار
في الصين ، على عكس اليابان التى يعد قتل النفس فيها من
الأمر المألوفة .

ودعت سيدة صينية زائرین لتناول الطعام عندها ، فحضر
أحدهما واعتذر الثانى ، فقالت للذى حضر : « أى وجه سأفقد
بتخلف صاحبك » .

و « فقد الوجه » يسبب فى حياة الصين العسكرية ارتباكات
كثيرة ، لأن خشونة الجنديّة تستدعى أحيانا أن يؤنب الضابط
جنوده ، والقائد منهم تحت إمرته . . وما هكذا صيغت النفسية
الصينية ، لأنها لا تستسيغ بحال هذه العقوبات !!

ومن أطرف ما يروى ، أن من التلعذر إبقاء وحدات من
الجيش فى الاحتياطى مدة طويلة ، لأنه يخشى أن تفقد وجهها ،
بعدم تقديمها إلى صفوف الجيش العامل .

ومن جملة الشواهد التى ذكرت ، نستطيع أن ندرك أن

تجنب العار ، أو الاحتفاظ بالوجه ، إحساس أعم من الإحساس بالشرف ، أو الكبرياء ، أو الوقاء ، أو الشهرة . هو مزيج منها جميعا . . . ولكن على الطريقة الصينية .



ونعود بعد هذا الاستطراد إلى ما كنا بصدده من الحديث عن أمراء الحرب ، الذين انتهزوا فرصة سقوط الامبراطورية ، وضعف نفوذ الحكومة المركزية ، وراح كل واحد منهم يجمع حوله جيشا ، ويحكم على هواه ، في استقلال ، بل في خصومة مع كل شيء ، وعلى الأخص جيرانه . فهو يصدر النقد ، ويسن القوانين ، ويفرض الضرائب ، ويصنع بالناس ما يشاء .

وقد ترتب على هذه الفوضى المطلقة ، أن شلت الحياة الاقتصادية شللا مخيفا . فالضرائب الفادحة التي كانت تحصل من الأهالي ، ومن الفلاحين بصفة خاصة ، كانت تطحن حياة الصين طحنا . وفقد الأمن ، وفقد الثقة ، وحالة الخوف للمستمر من أن يأتي كل صباح بتغيير يهدم حكما ويبدله بآخر قد أحالت الصين إلى جحيم . ومن أطرف ما روى في هذا الباب أن أحد تجار الأسلحة ، كان يعامل قائدا من حكام إحدى المناطق ، وضرب له موعدا خارج المدينة ، فقدر التاجر أن منيته حانت ، لأن هذه أنهل

وسيلة لتسديد الدين ، وربما كان هذا التاجر حقيقا بهذا الحمن ،
إلا أنه ذهب مع صديق له عسى أن تنجح مغامرته ، ويظفر
بالمال .. وسلحت له حزم مربوطة ، خشى إن فتحها أن ينقض عليه
الجنود فيقتلونه ويسلبونه ما معه . فصبر وهو يحترق لهفة حتى
وصل إلى المدينة ، وإذا ما معه أوراق مالية جديدة من عملة هذا
القائد .. ونصحه صاحبه أن يعجل بإنفاقها هذه الليلة ، فقد تكون
الأوراق مزيفة ، وقد يأتي الصباح بقائد جديد ، فنسقط كل
عملة القائد السابق .. ولم يتردد التاجر ، فأنفق أوفوه على حفلات
خمر ونساء . ولما كان الصباح ، ذهب بالقليل الباقي إلى بنك
المدينة ليستبدله بعملة أجنبية ، فقبل البنك أوراقه .. فلم تكن
مزيفة ، وما يزال القائد حتى الآن صاحب السلطان في الإقليم ..
وكاد يجن التاجر من الكمد لأنه أضاع ثروته باختياره في ليلة !!
وهذه القصة — وهي صحيحة — تصور لنا حقيقة حال المال
والمعاملات التجارية في عهد أمراء الحرب ..

ترى هل كان صوابا ما رآه حكماء الصين القدامى ، من أن
الولاء للحكومة أصل من أصول الحياة ، يسبق الدفاع عن الوطن ،
ويسبق إطعام الشعب !!

هذا الظلام الذي ران على الصين فجأة يكتب بحروف سود

غلاظ أن هذا حق ، وأن الصينى لكى يعيش ، يجب ان يخضع
لحكومة مركزية قوية تسلبه إدارته ..

وإذن فهل من الصواب ، أن تكون الديمقراطية ثوبا صالحا
يلائم الصين ، ويقبها شرور الفوضى ؟ .. هل كان حقا ما فعله
بالصين وطنها الأول الدكتور « صن يات - سن » الذى أقام
جمهورية لا تقوم ، وبني للناس بناء لا يدوم ، وعلمهم علما
لا يفهم ... وإذا كان الأمر كذلك ، ففيم رفع الدكتور صن
إلى مقام القديسين ، وسمى نبي الوطنية ، وأضيف إلى قائمة
عظماء التاريخ ؟ ..

ويجب على هذا السؤال تلميذ الدكتور « صن » الأول ، ومنفذ
رسائله ، المارشال شيانج كاي - شيك .. يجب لا بالكلام ،
ولكن بالعمل . وقد أحسن جنتر عندما قال إن الدكتور صن
كان « محمد » الصين ، وشيانج « عمر بن الخطاب » فيها .. فقد
ترك كل منهما شريعة ، وخطط نظاما . وجاء خليفته فنفذ
الشريعة ، وحقق الخطط .. وإذن فلنقل من هو هذا المارشال
الذى خاض غمار هذه الفوضى ، وضرب فى أتحائها ، بعزم من
حديد ، حتى تمكن من أن يشق للنظام طريقا ، وأن يوجد

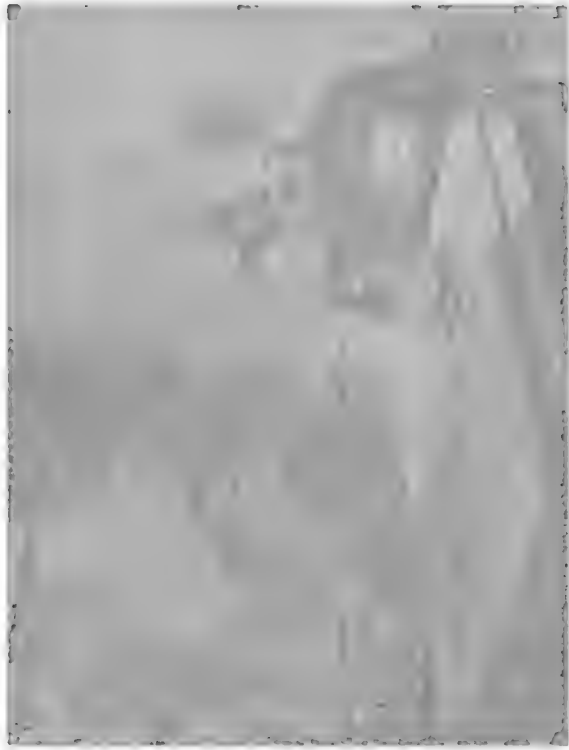
الصين مرة أخرى ، وقد صقلت روحها عن مروعة ، وجلتها
نيران ملتهبة متأججة ؟

من هو هذا الرجل الذى واجه كل قوى الشر بمفرده ، ولم
يكن ينظر إليه فى أول الأمر إلا أنه واحد من هذه القوى
الشريرة ؟ ...

من هو هذا الرجل الذى قال له أحد مستشاريه إن عليه أن
يعدم الخونة رميا بالرصاص ، فنظر إلى صاحبه متأسفا ، وقال :
من سوء الحظ أنه ليست لدى ذخيرة تكفى لاعدائهم جميعا !!



للإيشان وزوجه يستقبلان أحمد الزوار الأجانب وترى صورة حائط من بناء خلفها



في غمرة الميطارو

في سنة ١٨٨٧ ولد « شيانج - كاي - شيك » في قرية من غري مقاطعة « شكيانج » ، واسم القرية « شيكو » . ولا حيلة لي في كل هذه « الشينات » الموجودة في اللغة الصينية ، فذلك كانت وما تزال . ولو أن العرب سموا هذه البلاد بالاسم المنطوق ، لقالوا « الشين » لا « الصين » كما هو اسمها في اللغات الأوربية ! وهذه المقاطعة في جنوب الصين ، وعلى شاطئها . وكانت عرضة للاتصال بالبحارة الذين ارتادوا البلاد في العصور الأولى وأهمهم العرب والبرتغاليين . ولا يستبعد جون جنتر ، أن تكون دماء من أحد هذين الشعبين قد جرت في عروق رجل الصين الأول .

ولم تكن أسرة الوليد غنية ، وتزوج أبوه ثلاث مرات ، وأنجب خمسة أطفال ، أكبرهم شيانج . وقد لقيت الأسرة الأمرين في إرسال ابنها البكر إلى المدرسة . واسكن لم يكن الغلام نابها ، ولا لماع الذكاء . ولذا قطع سلسلة تعليمه البطيء الممل ، وقرر أن يكون

مجدداً . . والتجديد إذ ذاك كان يقتبس من جارة الصين الفتية ،
اليابان .

سافر شيانج إلى اليابان ، وكان في التاسعة عشرة من عمره ،
وغايته أن يلتحق بمدرسة حرية ليصبح ضابطاً . ولكن الأبواب
أقفلت في وجهه ، لأنه لم تكن معه توصية من حكومة بلاده .
فعاد الشاب إلى بلاده ، ولم يفتر عزمه عن الدراسة العسكرية ،
فقد كانت ملابس الضباط ، ومشيتهم مما يفتن الأب . ولم يجد
صعوبة كبيرة في الالتحاق بالكلية الحربية قرب بكين .

ولم يتعذر عليه بعد هذا أن يواصل فكرة التجديد ، فرحل إلى
اليابان ، ودخل كليتها الحربية . ثم التحق بالجيش الياباني .

اجل التحق الضابط شيانج كاي - شيك بالجيش الياباني
وخدم فيه بضع سنين . . وما أشبه في هذه الحالة بضابط فرنسي
من كبار التأثيرين تعلم في المدرسة الحربية ببرلين والتحق بالجيش
الألماني !!

ولكن القدر كان يهيء هذا الضابط الشاب لعمل جسيم .
سافه إلى اليابان وإلى خدمة اليكادو ، لكي يلتقي هناك بالدكتور
صن يات - سن . وكان لقاءهما عام ١٩٠٩ ... وكان شيانج في
الواحد والعشرين من عمره .

وظل شيانج عامين آخرين في الجيش الياباني ، ولكنه انضوى تحت لواء الزعيم الصيني ، والتحق بجمعيته السرية التي كانت مقدمة لإنشاء حزب الكومنتانج .

ولم يكن ذهاب الوطنيين الصينيين إلى اليابان غريبا ، فقد جذبت نهضتها مشاعرهم ، وأنسهم العداوة التقليدية بين الشعبين ولو إلى حين، وزاد في الحماسة لليابان نصرها السريع الحاسم على روسيا عام ١٩٠٥ ، الذي روج لفكرة آسيا للاسيويين ، وزاد في عاطفة المقت ضد الغربيين . .

وفي سنة ١٩١١ قامت الثورة في بكين لديك عرش أسرة مانشو ، وإنشاء الجمهورية الصينية . فاجر شيانج الى بلاده للقيام بواجبه . . ومن هناك أرسل السيف والبنلة اليابانيتين في طرد بالبريد إلى قيادته التي تركها ، مع أخلص تحياته !

وظل يحارب في معارك صغيرة خمسة اعوام ، وكانت صلته بالدكتور « صن » تزداد مع الزمن توثقا ، ولاسيا بعد أن تمكن مع جنده من انقاذ حياة زعيمه التي تعرضت لخطر محقق .

ولا ندرى ما الذي حدث على وجه التحديد من تطورات في نفس الثائر الشاب ، الذي نراه يخلع زيه العسكري فجأة ، ويهجر الجندية التي شغف بها ، ويعمل كاتباً في متجر !

هذا تبدل عجيب من غير شك . ولكن شيانج كان لديه منطقته الذى اقنع به نفسه . فقد قرر أن يشتغل بالسياسة ، ولا سياسة لمن لا مال له : فاعتزم أن يخوض ميدان الأعمال الحرة عسى أن يصبح من أصحاب الثراء .

ولم يلبث عمله فى التجارة أن لفت له نظر كبار التجار ، فحاز ثقتهم ، وبدأ يكون لنفسه ثروة خاصة ، ولكن فى حدود الضيقة ... ويرفع الستار عن عام ١٩٢١ ، فإذا هو عضو فى جمعية سرية ، تعمل فى الحرب والسياسة معا .. لقد عاد ثأرا مرة أخرى .

وكان الدكتور صن ينتدبه فى المهام الدقيقة والهامة . ومنها مهمته فى موسكو . وهناك رأى تروتسكى ، وسمع منه ، وتحدث إليه . وما قاله الزعيم الشيوعى الكبير (فى زمنه) : الصبر والنشاط هما أهم العوامل فى نجاح حزب ثورى . وكل منهما يكمل الآخر . وطالت إقامته بين البلشفيك ٦ أشهر .

ولم يلبث أن صعد نجمه فى حزب الكومنتانج على عجل . ولما مات الدكتور صن ، انتخب شيانج قائدا عاما للجيش الوطنى . وفى كتاب « الصين الفتاة » وصف لمقابلة أحد الصحفيين الأجانب لهذا الشاب الذى أصبح قائدا عاما .. قال الصحفي :

ذهبت إلى كاتون لمقابلته ، وهناك أمام بيت صغير من طابقين ، وجدت فتى يحرس الباب . فدفعت إليه بطاقتي ، وتأمل فيها برهة ، ثم تنحى عن الباب وأشار إلى السلام ، فصعدت . ووجدت في الردهة شابا يلبس ملابس الضباط فقلت له بالإنجليزية :

— أين شيانج كاي - شيك . فقال الشاب :

— نعم ! شيانج كاي - شيك !! فقلت موضحا :

— أين .. أين شيانج كاي - شيك .

فأشار الضابط إلى غرفة نوم متواضعة ، فذهبت إليها ، وجلست . وبعد قليل جاءني شاب من أبناء الجامعات ، وقال لي ان الذى كنت تخاطبه هو القائد العام بنفسه . وهذه غرفة نومه ، وهى أيضا غرفة عمله .

وفي هذه المقابلة — وكانت عام ١٩٢٦ — قال القائد الشاب إنه سوف يهزم القوضى ، ويوحد الصين .. وبدأ هذا الكلام حديث خرافة وأوهام حالم . وأضاف القائد إنه أيضا سيطلق الصين من عقال الامتيازات الأجنبية .. فكان هذا فوق ما يتصوره إنسان . ومن الغريب أنه قال فى ذلك الوقت أنه سيفعل ذلك فى عامين أو ثلاثة ...

ولم يوص الدكتور صن منشيء الحزب الوطنى ، بأن يكون شيانج خليفته . ولكنه أشار بأن يكون قائد الجيش الوطنى ، وأن يرأس وانج شينج - وى أحد زعماء اليسرة الوطنيين ، الحزب من الناحية السياسية .

ولم يلبث شيانج بمهارته أن زحزح وانج عن مكانه ، وأصبحت له الصدارة فى الحرب والسياسة .

وكان الوقت ثميناً . ففى نفس هذه السنة ١٩٢٦ قرر شيانج البدء فى تنفيذ خطته .



اعلانه الحرب على الحرب

هذا عمل عظيم لا نظير له في التاريخ .. ولم يسبق أن حاوله ،
أو فكر فيه انسان .. وهو أن يعلن فرد واحد الحرب على نصف
مليار لكي يجمعهم تحت لواء واحد ، وقد مزقتهم الفرقة ، وأنهكتهم
الخصومة ، وبددتهم مطاعم المغامرين .

حقيقة نعلم في التاريخ أن عظيما من عظماء الدنيا هو أبو بكر
الصديق شن الحرب بحفنة قليلة من الجند على العرب جميعا ،
لكي يجمعهم تحت لواء واحد . ولكن لم يكن يسكن الجزيرة
غير ثلاثة ملايين أو أربعة .

ولم يكن نفوذ الحزب الذي يقود شيانج قواته منبسطا في
الصين كلها .. لا بل كان منحصرا في الجنوب ، وكان الشمال ،
وكل مكان آخر منتها بأيدي تجار الحرب . وانهزمهرو الأسلحة ،

وتجار المغام من مصائب الشعوب ، الفرصة لكي يغذوا كل معسكر
صيني بحاجته .

ولا سبيل إلى أن نشبه هذه الحرب بحرب تحرير العبيد في
الولايات المتحدة . ولا بالحرب الأهلية في اسبانيا . فهاتان حربان
دعت إليهما البائء أو مصالح الأحزاب . وأما في الصين ، فهي حرب
ضد الحرب ودعاتها .

وكان أكثر الناس تفاؤلا ، لا يشك في أن نجاح شيانج في
اجتياح الصين ، سيتطلب منه سنوات عمره ، ومثله معه .. ولكن
المتبعين لسير الحياة في هذا القسم الكبير من الشرق ، ذهلوا
عند ما توالى الأنباء ..

وفي سنة ١٩٢٦ احتل ووشانج .

وفي سنة ١٩٢٧ احتل هانج شو .

وفي سنة ١٩٢٧ احتل شنجهاى ونانكين .

وفي سنة ١٩٢٨ احتل بكين .

وهكذا صنع شيانج قطعة من التاريخ الحديث .. جمع قارة

في أمة . فإلى كم من الزمن سيدوم ما صنع ؟

الحمر والصفر

كان ثالث مبادئ الدكتور صن التي ذكرناها ، المساواة الاجتماعية بين ابناء الأمة ، ومن هذا المبدأ بدأ الشيوعيون يوجدون لأنفسهم ثغرة ، ويفسرون هذا الاتجاه من الزعيم الأول بأنه ميسرة حمراء ، من النوع الذي عرفته موسكو . ولا سيما أنه كان من مستشارى حزب الكومنتانج - بورودين ، وبلوخر . ولم يكن كذلك الجنرال شيانج . فقد كان أميل إلى اليمين ، وإلى إقرار النظام الاجتماعى على حريه الاختيار والتملك والعمل .. فالصين فى روحها وتقاليدها وما يصلح حاضرها ومستقبلها لن تقرر التشيع .

وإذن فقد وجدت الثغرة ، وإذن فقد تلون الحزب بلونين أصفر وطنى على رأسه القائد العام ، وأحمر شيوعى على رأسه كثيرون .

وكان الشيوعيون يدورون حول المبدأ الثالث ، وراحوا يقولون إن شيانج ابن الثورة ، خان الثورة ، وخرج على مبادئها ، وأنكر أصدقائه ، وتنكر له كرى زعيمه .

ولم يتردد شيانج . ولم يقف طويلا عند هذه العقبات يتهيأ ، ويسمح للفتنة بأن تنمو حتى يتسع فاهها لابتلاعه . بل قرر أن يضرب ، وبكل شدة ، وفي كل مكان . وينسى كل شيء إلا الصين ، ومصلحتها العليا كما رسمها لنفسه .

ولم يلبث شيانج أن وجد مركزه حرجا ، وهو يشرع في حركته الجديدة . فهو في حاجة ملحة إلى المال . والمال في يد الأجانب الذين أعلن أنه ضدهم ، وضد تحكمهم في اقتصاديات بلاده . ورأى نفسه في الطريق إلى شنجهاي ، ولم يلبث أن التقى بكبار الماليين فيها الذين كانوا يخشون أعظم الخشية من الصين الحمراء التي قد تأكل أخضرهم ويابسهم . فعرضوا عليه أموالهم . فقبلها ، لأن غايته اتحدت مع غايتهم . فاذا فرغ من تطهير بلاده من الخطر الأحمر ، فلينظر بعد هذا في الخطر الأبيض .

وكا وافق اتجاهه الجديد هوى لدى الأجانب ، كذلك طابق خطة اليابان في شرق آسيا ، التي كانت تحارب الشيوعية والتشييع

حربا لا هودة فيها . ولا سيما أن طوكيو كانت أعلنت أنها تنوى
« انقاذ » الصين من البلشفيك .

وفى هذه القارة الجديدة ضد أعوان روسيا ، راح يحرب
قبضته ، ويكر فى كل مكان ، ويتلقى جنوده تدريبا عاليا ،
وينالون انتصارات كانت سهلة فى معظم الأوقات .

وهكذا كان الشيوعيون فى الصين ، شيئا قريبا من اليهود
فى الدول الديكتاتورية ؟

نوراح الصينيون المحريفون من هنا ، ويتراجعون من هناك،
حتى تأتى لهم التجمع فى مقاطعة كيانجسى ، وأنشأوا فيها أول
نظام سوفياتى فى الصين .

واستمرت هذه المطاردة عشر سنين طويلة دون أن يتمكن
شيانج من استئصال شأفة الشيوعيين . ذلك لأن روسيا كانت
وراءهم ، تمدهم بكل معونة لازمة .

وفى خلال هذا الكفاح المرير ، الذى حاول شيانج أن يرتق فيه
فتوقا فيظهر غيرها ، كانت جهته الداخلية - أى حزبه الكومنتانج -
غير مستقرة . فكثيرا ما استقال من الرئاسة والقيادة ، وكثيرا
ما أعيد انتخابه وفى كل مرة كان يستحوذ على سلطات أوسع .
وقد تمكن شيانج من بسط سلطانه على ٢٢ مقاطعة . وهى مساحة

لم تدن بالطاعة لقائد قبله .. والطاعة هنا تعني دفع الضرائب ..
لا أكثر .

وكان دائم الحركة جم النشاط ، استخدم الطائرة في كثير من تنقلاته ، حتى طاف بها معظم الصين ، ومكنته من أن يرى غرب الصين ، وتراه . وكانت رحلاته تقابل بحماسة وحرارة في كل مكان ولم يهمل شيانج في هذه الفترة الإدارة المدنية التي رغب في أن ينظمها حسب القواعد الحديثة .

فاستعان بالبرفسور كمر ، والسير فردريك روث لتنظيم العملة — وهي أعظم مشاكل الصين — كما شرع في إجراء انقلاب اجتماعي في بلاده قاده زوجته . ومن خلال الحن والكدح المتصل نشأ جيش الصين الوطني الأول ، الذي نظم على طراز لم تشهده هذه البلاد من قبل .

وبعد هذا كله أوقفه ، ظهر في الصين الشعور الوطني ، والاحساس بالمكان السيامي لهذه البلاد في المجموعة الدولية ...
ترى هل كان هذا نجاحا أم لا ؟

لقد أجابت اليابان على هذا السؤال بالعمل لا بالكلام .. فقد قررت أن للارشا قارب أن يوحد الصين وأن يضع قدمها على سلم الرقي ، فقررت أن تنشط ، وأن تسرع بهدم هذه الحركة ، قبل أن يفوتها القطار .

من هو ؟

كتب المارشال شيانج كاي - شيك إلى زوجته
رسالة يقول لها فيها :

« لقد وطلت العزم على أن أموت شهيدا في سبيل »
« بلادى إن احتاجت بلادى إلى استشهادى . ولن أسمع »
« لنفسى مطلقا أن أقدم على عمل يشمرنى بالجبل من »
« زوجتى ، أو لا يجعلنى جديرا بانتسابى للدكتور »
« من يات - سن » .

الرجل

المارشال شيانج كاي - شيك ، رجل طويل القامة ، قصير
الساقين ؛ يبلغ طوله خمسة أقدام وتسع بوصات ، ولدا يفضل في
صوره أن يرسم جالسا ، أو مرتديا معطفه العسكري .

دقيق الملامح ، معتدل القامة ، نحيف البدن ، وزن ١٤١
رطلا . يلبس الزي العسكري في معظم الأوقات ، ويفضله على
ما عداه . وله عينان نفاذتان ، عميقتان ، لا يقر لهما قرار .

يستيقظ مع الفجر ، ولا يكف عن العمل حتى الليل . وأحسن
ساعات النهار عنده ، التي ما بين الفجر وتناول الإفطار . ويجب
أن ينام قليلا بعد الغداء ، وهو يصغى إلى همهمة ضعيفة من
موسيقا شوير . وعندما يكف الجرامافون عن العمل ، يعرف
أصدقاؤه في الغرفة المجاورة أنه نام .

وبعد الظهر يتناول الشاي ، ثم يخلو إلى نفسه نصف ساعة
للعبادة أو التأمل .

لا يشرب الخمر ، ولا يدخن ، ولا يشرب القهوة ولا الشاي .
ويتناول طعامه على الطريقتين الأوربية والصينية . والأصناف
عنده سواء .

وحبب إليه في دنياه ثلاث : الشعر ، والجبال ، وزوجته .
وأحسن أوقات فراغه [إذا كان عنده فراغ وهذا نادر] أن يسير
بين التلال في يوم مشمس ، أو يتناول طعامه في مكان خلوي .
وإذا سار في زهاته أخذ ينشد الشعر الذي يحفظه .

وستحدث عن زوجته بعد حين . وأقرب الناس إليه بعدها
صديقه المستر دونالد الصحفي الاسترالي ، الذي ظل مستشاره وصفيه
لسنوات طويلة . ومن أصدقائه الأجانب المقربين جداً له الدكتور
جورج شبرد ، أحد رجال الإرساليات الدينية الأمريكية .

وشبرد أحد الذين يستطيعون مصارحة المارشال بكل شيء .
وقد قال له مرة وهو يؤنبه : إن جنوده في كيانجسي ، يعاملون
الفلاحين بغلظة تفوق معاملة الشيوعيين الحرلم . وقد ترتب على
هذه المصارحة أن ازدادت صلة الرجلين وثقفاً .

وهو يحب الوحدة . ولا يمتحن إلى حضور الحفلات العامة
والظهور أمام الجموع . وفي أثناء طوافه بالبلاد كان يقيم مأدبة
يدعو لها الرجال الرسميين ، ثم يستغنى عن مقابلتهم بعد هذه للمأدبة .

وعلى أثر أحد الانتصارات الكبيرة تجمعت حول بابه حشود
كثيفة من الشعب تهلل وتهتف . ورغب جداً في ألا يظهر لهم ،
وأن يكلف البوليس بإعادتهم إلى بيوتهم ، لولا إلحاح مستشاريه
عليه في أن يظهر لهم .

وفي المقابلات الرسمية ، تبدأ مدام شيانج باستقبال الزائر ،
وعندما يقدم الشاي يقبل المارشال . ولا تزيد المقابلة عن نصف
ساعة ، وإذا كانت لها بقية تستأنفها سيدة الصين الأولى .

وربما كان يعرف بعض الإنجليزية ، إلا أن زوجته تقوم
بالترجمة بينه وبين زائريه الأجانب . ولا تكاد تشعر أن بينك
وبين المارشال مترجم ، لأن « السيدة » وهذا هو اسمها في الصين ،
تحدث كأنما تقرأ أفكار زوجها وتعلم ردوده سلفاً .

ولا يحب المارشال إضاعة الوقت . فعندما زاره جون جنتر
قال له المارشال : أحب أن تشرح لي الموقف السياسي في أوربا في
جملة أو جملتين . وكانت هديته لزائره أن أسئلته ترجت إلى
الصينية وكتبت ، ووقع عليها المارشال !!

ويذاع عن المارشال أنه يخطط نفسه بحرس قوى ، وأن سمك
زجلاج سيارته بوصة ، حتى يخرقه الرصاص . ولكن هذا
الكاظم الذي زاره كذب ما كان يروي ، وقال إنه سارق قاصد



المدام
السيدة الأولى في الصين

بيت الدكتور كونج رئيس الوزارة ، ولمح في الطريق المارشال شيانج ، يسير قاصدا نفس البيت ، ولا يكاد أحد يتنبه له والحرس من بعده بنحو ٢٠ مترا . وقد رأى المارشال الزائر الأجنبي قبل أن يراه ، فحياه وسار في سبيله .

وكان رئيس حرس المارشال عام ١٩٣٩ ضابطا ألمانيا له قصة طريفة مؤداها أنه قام بثورة ضد جوبلز ، فسجن ، ثم خرج من بلاده إلى الصين . ولثقة شيانج به ولاء رياسته حرسه الخاص . وقائد طائرته أمريكى . والطائرة أهم أداة للانتقال ، لاتساع مساحة الصين الهائل ، والمارشال يعتمد عليها كثيرا في رحلاته ، ويعرم بالطيران جداً .

وقد ذكرنا اسم المارشال الذى يعرفه به العالم . ولكنه دعا نفسه باسم آخر عندما ارتفع نجمه واستطارت شهرته ، اتباعا لتقليد صينى محترم . فاسمه الرسمى « شيانج شونج - شنج » . Chiang Chung - Cheng ، والمقطعين الأخيرين من صفات المدح التى تدل على الاستقامة والاعتدال . وبهذا الاسم الأخير يوقع أوراق الحكومة ، وكذلك يذكر فى الكتب الصينية . وتناديه زوجته باسمه البسيط « كاي » .

وتولى شيانج رئاسة الوزارة مرارا ، ولو أنه الآن ليس

رئيس الوزارة . وتولى أيضا رئاسة الجمهورية .. إلا أنه لم يعلق كثيرا على هذه المناصب لأنه لا يزال يرى مهمته التي بدأها لم تتم بعد .. وهى مهمة عسكرية فى صلبها وتفصيلها . فهو القائد الأعلى للقوات الصينية . وهو أيضا رئيس حزب الكومنتانج ، وقد انتخب للرئاسة فى مارس سنة ١٩٣٨ ، وبذا جلس رسميا على الكرسي الذى أنشأه معلم الصين الأكبر الدكتور « صن يات - سن » . وهكذا جمع شيانج فى يده السلطات الثلاث : الحكومة والحزب والجيش .

وقد يكون ستالين أوسع منه سلطانا ، وأقوى نفوذا . إلا أن الرئيس كالينين لا يزال رئيس الجمهورية السوفياتية . وستالين لم يزد على أن يكون رئيس الوزارة ، ووزير الدفاع . وقد تولى هذه المناصب فى أثناء الحرب الحاضرة .. أما قبل الآن فلم يزد على أن كان سكرتير الحزب السوفياتى !

وكما أن الحزب فى روسيا هو الحكومة ، كذلك فى الصين .. حزب الكومنتانج هو أيضا الحكومة ، أو على الأصح منه وإليه مرجع الحكم .

ويجب المارشال القراءة ، فهى هوايته المحببة ، وأكثر

قراءاته في أدب الصين القديم وحكمتها . وأكثر ما يعجب به من
هذا القديم قول كوفنشيوس :

« إذا أراد الإنسان أن يضمن الفضيلة للعالم ، فعليه
« أولاً أن يحكم أمته .

« ولكي يحكم أمته ، لا بد له قبل هذا من أن يحكم
« أسرته .

« ولكي يحكم أسرته لا بد أولاً من أن يقوى بدنه
« بالرياضة النفسية .

« ولكي يقوى بدنه لا بد له من أن يقوى عقله .

« ولكي يقوى عقله لا بد قبل هذا من أن يخلص
« في النوايا .

« ولكي يخلص في نواياه لا بد من أن يزيد المرء
« في علمه » .

وهو رجل عسكري ، خاض حرباً ضد أمراء الحرب ، وضد
الشيوعية ، وضد اليابان منذ عشرين سنة إلا سنة ، لم يهدأ ،
ولم يفتر ، ولم تلن له قناة . وقد خاض رمسيس والإسكندر
ويوليوس قيصر ونابليون ومحمد علي حروباً كثيرة استمرت

أزماناً ، ولكنها كانت معارك متقطعة تخللتها هدنة وراحة معتدلة .
إلا أن صاحبنا لبس ثوبه العسكري وحمل سلاحه على عاتقه وانطلق
من ذلك اليوم البعيد الذى تولى فيه قيادة جيوش الشعب . ولا
يزال منطلقاً حتى كتابة هذه السطور !!

وقد علمته هذه الحياة العسكرية ، وكثرة الظروف السيئة
التي أحاطت به أن يكون قاسياً ، لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً .
فقد أدان الشيوعيين وذبحهم ذبح الماشية . وعلمه هذا الدور
العنيف الدامى الذى يقوم به كيف يكون حذراً ، خشناً ، كثير
الحساب . وإن قوة شكيمة ، وشجاعته الفائقة ، لما يضرب
بهما المثل .

ولقد أثبت في أكثر من موقف أنه لا يهاب الموت ولا
يخشاه .

وعلى الرغم من شدته مع أعدائه ومعارضيه ، فهو لا يتردد
في الاستفادة من العناصر الصالحة التي يلح فيها بادرة خير . فهو
يتغاضى ، ويتسامح . ولكنه لا ينسى .

ومثله في هذا مثل الملك ابن السعود ، الذى شيد ملكه بذراعه ،
واتزرع النصر من أنياب أعداء كثيرين . فلما استتب له الأمر ،

وظفر بكل الذين كانوا ضده ، عفا عنهم ، وألحقهم بحاشيته ،
ولكنه وضع عينه عليهم . . وما يزال أمره كذلك .

وهو رجل صبور ، قوى الأعصاب إلى حد عجيب .
فقد كان يشن حرباً ضد الشيوعية ، وبدأت اليابان تتحرك ،
وهو يظهر أنه لا يكثر لها . .

سقطت منشوريا

وسقطت جيپول

وسقطت الصين الشمالية

وحاق الخطر بمنجوليا

كل هذا حدث ، وقائد الجيش الوطنى دائب على محاسبة
اليابانيين ومطاردة الشيوعيين . وظن الناس به الظنون فى الصين
وفى الخارج . وحسبوه عاملاً من عمال اليابان ، ونصيراً لمطامعها
ضد الروس ، على حساب وطنه .

وزادت الإشاعات وقويت ، وتخرجت الأمور إلى أقصى حد .
ولم يلبث الأمر أن تبدل فجأة ، والتفت المارشال صوب اليابان ،
وأعلن عليها حرباً وطنية الكبرى . . .

وظهر من سياسته أنه كان يريد أولاً أن يحمى ظهره ، ويمكن
لنفسه ، ويدرب الجيش . لأنه كان على ثقة ألا قبل له بمواجهة

اليابان . وكان يعلم أنه سيقضى على قوته كلها في حرب خاسرة ، صبر . . ولكن صبر من تجرى في بدنه عمليات جراحية تستأصل وتنزف الدماء .

وظهر أنه كان يلقي محاضرات على ضباطه الكبار في عام ١٩٣٤ ، وكانت هذه المحاضرات سرا لا يذاع . فلما أعلن الحرب على اليابان بعد ثلاث سنين طبعت هذه المحاضرات ، فإذا هي كلها استعداد وتوجيه للحرب ضد اليابان . .

وهكذا احتمل شيانج حملة الشك ، وترويج الإشاعات ، وسوء السمعة في كل مكان . لأنه أراد أن يختار هو الوقت الذى يعمل فيه ، والعدة التى يعمل بها . ولم يترك ذلك للناس ، ولأحلاس القهاوى والجالسين فى الأركان الدافئة بالمنتديات أو البيوت . . ذلك أنه هو الذى يعمل لا هم . وهو يعرف من سر عمله ما لا يعرفه غيره فى الخارج .

وهذه صورة تتكرر فى التاريخ وفى حياة الرجال العاملين كثيرا . وبقدر ما تكون أعصاب هؤلاء القادة قوية ، لاستجيب لإغراء الشهرة السريع ، ولا تهاب النقد السطحي البتسر ، بقدر ما يقدر لها من توفيق ونجاح . .

وهذا هو دائما الفرق بين من يصنعون التاريخ ، ومن يعلقون على هامش هذا التاريخ !!

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى ذكر كلمة أخيرة عن شيانج
الرجل ، وهى ميله إلى المرح والدعابة . .

فهو رجل صارم جاد . لا يستجيب لدواعى الضحك كثيرا .
ولكنه مع هذا قد يضحك فى أشد الأوقات حرجا . حدث مرة أن
أظلمت الدنيا فى وجهه وهو فى « سيان » [وسنعود إلى هذا الاسم
قريبا] وكان معه الصحفي الاسترالى دونالد . فسأل صاحبه عن
أحسن ما يعمل ، فأخرج دونالد من جيبه صندوق الورق
ودعاه إلى مباراة . فضج المارشال بضحك متصل .

ومرة كان يركب مع دونالد فى أحد الطرق بشكيانج . ولاحظ
الصحفى أن أحداً ما رفع من الطريق العلامات المكتوبة باللغة
الإنجليزية ، التى يسترشد بها السائقون الأجانب مثله ، فصاح :

— يا للسماء ! أى مجنون هذا الذى أمر بنزع علامات

الطريق المكتوبة بالإنجليزية !!

فضحك المارشال ضحكا عاليا من انفعال صديقه . . لأنه هو

— أى شيانج — الذى أمر برفع العلامات !!

الثروة والأسرة

يتقاضى المارشال شيانج مرتبا شهريا قدره ١٠٠٠ ريال صيني. أو ما يقرب من ٣٥ جنبا مصريا . ولا يظن أن له دخلا كبيرا من ثروته الخاصة التي جمعها في شبابه من اشتغاله بالتجارة كما ذكرنا أما أسرة « سونج » التي تزوج منها المارشال ، فهي من أغنى الأسر في الصين . ومع هذا فما أقل حاجة هذا الحاكم المجاهد إلى المال ، لأنه ليس لدى الزوجين وقت ينفقان فيه المال .

وكانت الحكومة الصينية قد بنت لرئيس الدولة مقرا في نانكين ، ولكن للمارشال — مدة مقامه هناك ، أثر على هذا البيت الرسمي الكبير مسكنا صغيرا استعاره من الأكاديمية الحربية .

ولا يحب الصينيون عامة التفاخر بالثروة ، والاستعلاء على الناس عن طريقها . وقد ذكرنا أنه لا طبقات في الصين ، مثلهم

في هذا مثل العرب . ولكن يجب على الحاكم الصيني أن يشمر
أتباعه — وعلى الأخص الجيش — ان خزائنه عامرة ، حتى
يطمئنوا جميعا على دفع مرتباتهم . وكثيرا ما هجر جيش أحد
القواد إلى القائد الذي ينافسه أو يعاديه ، لأن ثروة الجديد أضخم
من القديم .. أو هكذا يظنون .

ومن النفقات الهامة في ميزانية المارشال ، اجر الجراح .
فكل جندي يصاب بجرح يتناول ١٠ ريالات صينية . وكل ضابط
يتقاضى مقابل الجرح من ٣٠ إلى ٥٠ ريالا . أما القائد فثمان
جرحه ١٠٠ ريال .



عندما بلغ شيانج الخامسة عشرة من عمره — أى في فجر
حياته — تزوج إحدى بنات جيرانه ، بناء على طلب أسرته .
ولكن في سنة ١٩٢١ طلق شيانج هذه الزوجة لأن مستواها
العلمي والاجتماعي لم يكن يؤهلها لأن تكون السيدة الأولى في
حياة الرجل الذي يطمح لأن يكون الرجل الأول في الصين .

وبعد قليل من هذا الطلاق ، رأى شيانج فتاة جميلة وضاءة
هى « ماى - لينج سونج » فشغف بها شغفا عظيما ، وأخذ يلاحقها

بحبه فى كل مكان ، ملاحقة لا تعرف الكلل ولا الهوادة. وكانت
هى لا تريده زواجا لها ، لسبب بسيط ، وهو أنه « لا يعجبها » ! .
ولم تسترح أسرة الفتاة كثيرا لهذه الحالة للقلقة بين الشاب
المتدله العنيد ، وبين فئاتهم المتأبئة .

وبعد ست سنوات من الحرب فى جبهتين : جبهة الوطن
والكفاح ، وجبهة الآنسة ماى - لينج ، حدثت مفاجأة . فقد
دعت مدام كونج الصحفيين إلى حفلة فى بيتها ، وأدهشهم أن
رأوا المارشال شيانج هناك . وزادت دهشهم عندما أعلنت مدام
كونج أن أختها الصغيرة ماى لينج ستزوج هذا القائد !!

وفى أول ديسمبر سنة ١٩٢٧ عقد الزواج ، ودعا شيانج
للحفلة التى أقامها الف مدعو ، وأنفق عشرة آلاف جنيه فى
هذه الليلة .

وخطب شيانج بعد الحفلة قائلاً: هذا الزواج سيدفع ثورتنا الوطنية
إلى الأمام دفعا عظيما ، لأننى أستطيع الآن أن أواجه المسؤوليات
الجسيمة التى فوق عاتقى بعزيمة صادقة... فقد حل السلام فى قاي !
ويعرف الصينيون ، بل يعرف الناس جميعا فى كل مكان ،
ان حرارة الحب الأول الذى حمى المارشال لزوجته ، ما تزال متأججة
حتى الآن على الرغم من مضى أربعة عشر عاما على حياتهما معا .

فهي جزء من حياته ، وهي عنده الصديق الذي لا يستغنى عنه ،
والرفيق الذي لا عمل صحبته ، والمشير الذي تتقدس مشورته .

ولم يرزق الزوجان أولادا ..

ولكن المارشال رزق من زوجته الأولى ولدا ، هو
شينج - كو . ولم تكن صلات الابن وأبيه طيبة . ففي الوقت
الذي كان شيانج يحارب الشيوعيين في بلاده بكل عنف ذهب
هذا الابن إلى روسيا - امعانا في التشيع - واشتغل مهندسا في
أحد مصانعها . ولم تتردد الصحف الروسية في أن تستكتب الشاب
مقالات ينم فيها أباه ويهاجم سياسته .

ولكن في سنة ١٩٣٧ ، عندما تألفت الجبهة الوطنية ،
وكفت الحرب ضد الشيوعية ، لمواجهة اليابانيين ، عاد شيانج - كو
إلى بلاده ومعه زوجة روسية وطفل - هو الآن حفيد المارشال .
وقد انتدب الأب ابنه ضابط اتصال بينه وبين الجيش الصيني
الشيوعي في مقاطعة كيانجسى .

ويتبنى المارشال فتى آخر ، هو ابن أحد أعضاء حزب
الكومنتانج ، كان أبوه قد أوصى الزعيم برعايته . وهذا الفتى يبلغ
الآن السادسة والعشرين من عمره ، وكان قبيل إعلان الحرب
في جامعة برلين العسكرية يتلقى علومه فيها .

ولنقل بعد هذا كلمة عن سيدة الصين الأولى ، التي استطارت شهرتها في أنحاء العالم ، وعدت من عظيمات نساء هذا العصر . وعندما رحلت إلى أميركا منذ عامين دعاية لقضية وطنها ، هزت الاميركيين من الأعماق ، وأفادت بلادها فائدة لا تقدر بمال ولا توصف في مقال ..

من هي هذه السيدة ؟

حدث فيما سلف من الزمن أن رحل إلى أميركا شاب اسمه شارلز جون سونج ، تنجس بالجنسية الاميركية ، وتعلم فيها ، ثم وهب نفسه لنشر المسيحية ، فسافر إلى الصين ، واستقر في شنجهاى . ومنذ أكثر من نصف قرن تزوج فتاة صينية اسمها « نى » ومنها أنجب بناته . وقبل أن يمضى الزوجان من هذه الحياة ، قدر لهما أن يشهدا أى خلف تركاه في هذه الدنيا .

أما كبرى بنات سونج التي ولدت عام ١٨٨٨ فقد تزوجت الدكتور كونج رئيس وزارة الصين .

وأما التي تليها وقد ولدت عام ١٨٩٠ فاسمها شينج لينج ، وقد تزوجت أعظم رجال الصين الحديثة ، وهو الدكتور صن يات — سن .

والفتاة الثالثة التى ولدت عام ١٨٩٨ ، فقد تزوجت زعيم
الصين الآن ، المارشال شيانج كاي - شيك .

هؤلاء هن بنات سونج . أما أبنائهن الثلاثة فقد شاركوا في
الحركة الصينية الوطنية .. ولكن حظ البنات كان عظيماً . فقد
حكمن الصين ، منذ ثلث قرن ، وما زلن يحكمنه .



وأى دور تلعبه هذه السيدة في حياة بلادها ؟

هى أصغر أخواتها سناً . ولكن أختها زوجة الدكتور «صن» ،
أجمل شكلاً ، وإن تكن أكثر منهن تقرباً ، أى تمثيلاً للمظهر الاميركى
أو الأوروبى ، لمقدرتها الفاتقة على أن تكون سيدة مجتمع من
الطراز الأول . فحديتها لبق ، وحركاتها رشيقة ، وصوتها موسيقى ،
وزيها يتم على ذوق سليم .

وليس صحيحاً ما يقال عنها من أنها ديكتاتور الصين . وليس
صحيحاً ما يقال من أنها امبراطورة الصين غير المتوجة . وليس
صحيحاً أنها تدفع زوجها العظيم دفعاً فى كل طريق . ولكن
الصواب أنها الشخصية الثانية فى الصين ، وزوجها فى المقام الأول .
حقاً يستشيرها زوجها ولكن قراره فى جلى المسائل هو «القرار»

إلا أنها صلته وفكره في المسائل الخارجية ، لأنها لسانه الذى
ينطق به . .

ولقد قالت لها إحدى زائراتها مرة :

— ما هو مصدر القوة عند زوجك فأجابت :

— إحساسه بواجبه نحو الشعب الصينى .

فضحكت السيدة وقالت وهى تشير لمدام شيانج :

— إنك أنت مصدر قوته .

وهنا فزعت سيدة الصين الأولى ، ونفت بلسانها وحركاتها
هذه الفكرة المنكرة . وألحت على زائريها ألا يذيعوا هذه الفرية .
فما للصين زعيم قوى متسيطر غير شيانج كاي - شيك . وما
« مدام » إلا زوجته ...

ولكن هذا الإلحاح فى الإنكار - رغم صحته - لم يمنع السيدة
العظيمة ، من أن تقول عنده كانت تتحدث عند اختطاف زوجها
لو كنت موجودة لما اختطفوه . . فهى تعلم دورها على حقيقته .
ولكن الطبيعة الأصلية فى الخلق الصينى تحملها دائماً على أن تكون
التالية . . ولعلك لم تنس بعد أن سر النجاح أن عشى على ذيل
النمر دون أن يعضك النمر ! !

وما أكثر إعجاب السيدة بالبناء والتشييد . رأت أخيراً في
هونج كونج منشآت عظيمة في البناء ، فوقفت معجبة وقالت :
كم كنت أتمنى أن يرى « شيانج » هذه المباني .

وتنقص مدام شيانج الرونة السياسية . فهي تكره الشيوعيين .
وتجاهر بهذه الكراهة ، وتلح فيها الحاحاً شديداً .

ولقد تعلمت في فجر حياتها في اميركا . ولذا ينسب لها البعض
أنها لا تعرف الصين جيداً . ولكن هذا ادعاء باطل . فما تزال
« الصينية » الصميمة تختفي وراء كل حركة وكل تفكير
يصدر عنها .

وهي سريعة الخاطر ، محكمة العبارة إلى حد يدهش
له الناس .

وقالت عن فهم الأجانب للصينيين أنهم يظنون أن الرجال في
الصين يلبسون « فساتين » والنساء يلبسن « بنطلونات »
وعندما كانت تتفاوض مع الذين اختطفوا زوجها لرد حريته له
قال لها خاطفه : إن المارشال يسقلهم بلسان حاد . . فأجابت من
فورها :

— أجل لأنه يقسو دائماً على الذين يرجو منهم خيراً .

ومهامها في الصين عظيمة :

فهي رئيسة القوة الجوية هناك . وهي زعيمة الحركة النسائية
والشرف على أعمال الوقاية السلبية . وعندما يغير اليابانيون من
الجو على عاصمتها تخرج بنفسها فوراً ، وفي أى ثوب ، لكي تضمد
الجراح ، وتواسى المنكوبين ، معرضة نفسها لأقسى الأخطار
وما من رحلة قام بها زوجها إلا كانت معه . ومرت واحدة
تخلفت عنه لمرضها .. فاخططفه أعداؤه

ولها في التعليم جهود عظيمة ، وعلى الأخص في تيسير اللغة
وتقريبها إلى الجميع . ومن مهامها الاشراف على حركة الحياة
الجديدة في الصين . التي تشبه جمعيات الشبان المسيحية في الغرب ،
والاسلامية في الشرق . وتختصر هذه الجمعية تعليماتها في كلمات
قليلة ، ولكنها عظيمة التأثير . كأن تقول : لا تزاحم . احتفظ
بترتيبك في الصف . لا تبصق . النظافة تمنع المرض . تجنب الخمر
والنساء (الزنا) والقمار .

وتعتقد « السيدة » أن أعظم حركة في تاريخ الكومنترانج
هي جمعيات الحياة الجديدة

ومدام شيانج شديدة الفهم لتبعاتها ، والتعلق بمسؤولياتها
والصبر عليها صبراً لم يعرف بعد عن سيدة . فهي تقول :

عم المصنف... حل الأوامر... خطبة على ضباط جيشه



« ليس من اليسير أن تضع نبينا جديدا في زجاجات قديمة .
وأنا أحصل غالبا على ١٪ من نتائج الجهود التي أبذلها . »
وفي تاريخنا المعاصر سيدتان أخريان ارتفعتا إلى أعلى مقام بين
سيدات العالم هما ملكة إنجلترا ، ومدام روزفلت ، فإذا أضفنا
إليهما مدام « شيلك » ، فقد حصلنا على قمة نضوج المرأة المحدثه ،
وغاية ما وصلت إليه من رقى .

إلا أن هناك فوارق بين هؤلاء العظميات الثلاث . أهمها أن
الصين إذا فقدت سيدتها الأولى ، فلن تعثر على من يشغل مكانها
الكبير بين قومها . أما السيدة الأولى في اميركا ، وفي إنجلترا ،
فلهما نظائر . وإن كان دور الجميع يختلف .

فملكة الانجليز تقوم بدور اجتماعي عظيم تجلّى في هذه الحرب
بقوة خارقة . فهي الأم الرحيمة والأخت الشفوقة لآلاف مؤلفة
من الأطفال اليتامى والنساء الشكالى الذين تخلفهم المعارك . وهي
في زيتها المحتشم ، ووجهها الهادىء ، ونشاطها المستمر ، واعبائها
المضنية ، تزيد في مكانة البيت المالك الانجليزى وترسخ قواعده .
أما سيدة البيت الأبيض الاميركى ، فهي زعيمة موقوفة للاميركان ،
إلا أن خطبها ومحاضراتها ، ودعاياتها التي لا تفتر لزوجها ، تعطى صورة

قوية عن الحياة السريعة المندفعة التي ينطلق فيها الاميركيون .
هى اصدق ممثلة للروح الاميركية « الرجالية » لا النسائية ..

وشئ من هذا يقال عن مدام شيانج كاي - شيك ، التى قال
عنها دونالد صديق زوجها أنها تفكر بعقل رجل . إلا أن اعباءها
والأخطار التى تتعرض لها أوفر بكثير من كل ما تعرضت له سيدة
فى مثل مركزها فى دولة من الدول ..

وفى هذه الأمم الثلاث الكبيرة سيدات يعتمد عليهن كيان
المجتمع ، سواء كن ملكات أو زعيمات .

ولكننا ندهش إذ نرى هذه الظاهرة تقتصر على الصين وأميركا
وانجلترا . أما الدول الديكتاتورية الخمس فليست لها سيدة أولى
من النوع الذى ذكرناه فروسيا ، والمانيا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ،
واليابان ، تعتمد على رجل ليس بجواره سيدة ظاهرة الاثر فى
حياة قومها .

ترى هل اختلاف الديمقراطيات عن الديكتاتوريات فى
التكوين الاجتماعى هو الذى أوجد هذه الظاهرة ؟ !

لست أدري ، لآنى لم أقتنع بعد أن المارشال شيانج كاي - شيك
ليس دكتاتورا . ولكن بمعنى يختلف تماما عن معنى

الديكتاتوريات الأخرى .. فهو حقيقة يستمد نفوذه من حزب الكومنتانج ، ولكنه في نفس الوقت يعتقد أنه وحده الذى يستطيع أن ينفذ الصين ، وينكبه العنرات ، ويخفف عنها الأحمال الثقالة التى ترزح تحتها .



ولنعد إلى حياة المارشال الخاصة مرة أخرى .

ذكرنا قبل أن الآنسة ماى - لينج ، رفضت أن تتزوج القائد الشاب شيانج ، وكما ازداد الحاحا ، ازدادت تمنا . وقالت له مرة وهى تحاوره - كيف أَرْضَى بك زوجا ، وأنا مسيحية مخلصه لدينى ، وأنت وثنى ! ان أنت دخلت فى المسيحية ، فقد يكون هناك مجال لكلام جديد يقال .

ولو كان شيانج ، شخصا آخر ، يحمل كل هذا الحب لفتاته ، لقبول هذا الشرط من فوره ، ولظفر بها بكلمة يقولها . ولا سيما أن الصينى العادى - من غير أتباع الأديان السماوية - لا يكثر كثيرا العقيدته ، لأنها فى مجملها مجموعة من المقواعد الخلقية ، وبعض طقوس معقدة للتعبد فى الهياكل .

ولكن شيانج لم يكن فردا عاديا . وكان يريد أن ينتصر فى معركته الغرامية « من غير قيد أو شرط » . فأجاب صاحبه بقوله :

— يا آنسة . لو أننى قبلت المسيحية ديناً ، لسقطت من نظرك ،
ولما كنت جديراً بك . ولكنى أعدك أنى سأدرس هذا الدين
بعناية — ولكن بعد زواجنا ، فإذا أَرْضَانِي وأَقْنَعَنِي ، فسأعتنقه
وفكرت الفتاة فى هذا الجواب ملياً . فوجدته مليئاً بالحكمة
والسداد .. وجدته جواب رجل جدير بالأكبار والاعجاب ..
فزوجته « دون قيد أو شرط »

وبر شيانج بوعدة ، فدعى أحد رجال الإرساليات التبشيرية ،
وأخذ يدرس معه المسيحية . ولم يرض بها ديناً ، إلا بعد تفكير
استمر ثلاث سنوات . فلما اطمأن لها ، ذهب إلى الكنيسة فى
٢٣ أكتوبر سنة ١٩٣٠ ووهب نفسه للمسيح ، وعمد حسب
الطقوس المعتادة ..

ولو أن هتلر مثلاً دخل فى اليهودية ، أو اعتنق زفلى البوذية
لكان هذا العمل حديث الدنيا كلها . أما شيانج ، فعلى العكس لم يثر
أحد حول تغيير دينه ضجة ، على الرغم من أنه كان من أكبر
رجال الشرق يومذاك ، ولا اكترث أحد فى الصين لهذا الحادث .
ويتعاون الآن مع المارشال الوثنيون والسلمون والمسيحيون
بإخلاص تام ، لأن « الصين » نفسها تجمعهم .
ويحافظ زعيم الصين على طقوس دينه الجديد بعناية كبيرة .

فهو يصلّى مع زوجته كل صباح ، ويتلو الدعوات قبل كل طعام ، ويحافظ على عطلة الأحد محافظة تامة . وكثيرا ما يقتبس عبارات الانجيل في خطبه .

ولكن على الرغم من مسيحيته المخلصة ، لا يزال يؤثر الطيب الصالح من ديانتة القديمة . فهو يقدر أرواح أجداده ، واستطاع أن يجمع بين عقيدة الجنة والنار في المسيحية ، وبين عدم وجود الجنة والنار في دين عبادة الأرواح . واما كيف يجمع بينهما . فالمرشال وحده هو الذى يعلم ذلك !



ومن العادات الهامة التى يحافظ عليها زعيم الصين ، ورجلها الأول ، أنه يأمر صباح كل اثنين بعمل « طابور » لكبار ضباط جيشه بجوار مقره ، يبلغون عادة نحو ٦٠٠ ضابط ، وعندما يحضر القائد العام ، تعزف الموسيقى النشيد ، ثم يسود صمت عميق ، وتعرض صورة الدكتور « صن يات - سن » أبو النهضة الصينية الحديثة ، فيركع الجميع أمامها ثلاثا . ثم يقرأ المرشال جملة من تعاليم الزعيم الأول ، وبعد هذا يطلب من الحضور أن « يتأملوا » ثلاث دقائق ، على الطريقة الصينية . وهى لحظات صمت ، يركزون فيها أفكارهم فى موضوع ما . وبعد « التأمل » يلتقى

المرشال خطبة أو محاضرة تستغرق نحو ساعة يستعرض فيها أخبار الحرب . وإذا طال الموضوع فقد يستغرق ساعتين .

وتتضمن خطبه نصائح هامة . كأن يقول مثلا : إنه لا يجب أن تقتصر على تدريب الجنود الصالحين تدريباً عالياً لكي يكونوا ضباطاً أكفاء ولكن أيضاً ينبغي للضباط الأكفاء أن يدربوا لكي يكونوا جنوداً صالحين .

وعندما تلقى الخطبة يظل الجميع وقوفاً حتى الوزراء . ويختم المرشال الخطبة لا بقوله شكراً ، ولا مع السلامة ، ولا انصراف ولكن يقول : خلاص !



وهل يمكن أن نختم هذا الفصل دون أن نشير بإيجاز إلى المستر دونالد الصديق الأول للأسرة ، والأجنبي الأول الذي يحب الصين مثل أي صيني آخر ، بل أكثر ، والذي ثار مع الثائرين وخطرمخاطر المخاطرين . وظل هذا دأبه ٣٥ سنة أو تزيد . ومع هذا فهو لا يعلم من اللغة الصينية إلا كلمتين : شكراً . وسحقاً !! .

وصلة المستر دونالد بالصين عجيبة . فقد ولد بأستراليا سنة ١٨٧٥ ، ولما شب عمل في إحدى الصحف الأسترالية . وذات يوم جاءته رسالة من هونج كونج ، بأن في مكتب البريد تحت تصرفه

١٢٠ جنبها لكى يصفى بها أعماله ، ويسافر ليتسلم عملا جديدا ،
بأجر أكبر ، فى جريدة بهذه المدينة الصينية . ودهش دونالد لهذا
الخطاب المفاجئ . فهو لم يكن صحفيا مشهورا تقبل عليه العروض ،
والصين مكان بعيد جدا عن استراليا لا يعرفه فيه انسان ..

ووجد حقا ما ورد فى الرسالة أن باسمه فى البريد ١٢٠ جنبها ،
فسافر لمجرد الفضول ، ولمعرفة سر هذا العرض العجيب . ولم يكن
حديث خرافة أن فى هونج كونج جريدة بالاسم الذى جاءه ،
ولما دخل على محررها ، وقدم نفسه له قال المحرر :

— مرحبا . اجلس هناك . فهذا مكتبك ! فقال دونالد :

— ولكنى أريد أن أعرف لم دعوتى .. ولم اخترتني بالذات

من بين صحفي العالم ، فأجاب الرجل :

— السبب بسيط جدا . فقد كلفت بعض أصدقائى بالبحث

عن صحفى لا يشرب الخمر . وكان ذلك من ٧ سنوات . وعز علينا
جميعا أن نعتز على ضالتنا حتى علنا ، واستوثقنا من أنك لا تسكر ،
فدعوتك للعمل .. وهذه ميزتك عندي . والآن تفضل وخذ
مكتبك فى الغرفة اليمنى !

وخرج دونالد إلى الغرفة اليمنى ، ولم يعلم كم ساعة ظل فيه
مفتوحا دهشة وعجبا .

ومنذ ذلك الوقت تبنت الصين هذا الصحفي الشاب .. وقد عمل في كل حركة صينية ، واستقر منذ خمس عشرة سنة في خدمة المارشال الشاب ، «شانج سو - ليانج» ، وحضر حادث اختطاف المارشال الزعيم . وبهرته مدام شيانج بقدرتها ، وذكركته بصلالته القديمة مع أسرة سونج (أسرتهما) . فما أن عرضت عليه العمل معها ومع زوجها حتى قبل .. وكان ذلك من عشر سنين . ومن هذا الوقت وهو الصديق الأول لزعيم الصين . ولكنه لا يشغل منصباً رسمياً، وإن كان دائماً ثالث ثلاثة أحدهم شيانج كاي - شيك ويرفض أن يسمى مستشار الحكومة . وكل وظيفته انه «صديق» الحكومة وصديق ربانها الأول .. ويندر ألا يتناول طعامه مع أسرة المارشال . وهم يطهون له الطعام على الطريقة الغريبة ، لأنه لا يأكل الطعام الصيني . .



وأظن أن القراء ملوا الاشارات الكثيرة الى حادث اختطاف المارشال شيانج كاي - شيك . فلنذكر تفصيل هذا الموضوع الهام .

الأسير

نقع منشوريا — كما هو معروف — في شمال الصين . وكان سيدها وسيد الصين الشمالية غير منازع مارشال من أمراء الحرب ، انفجرت في قطاره قنبلة فنسفتها معا .. وكان ذلك عام ١٩٢٦ .

وكان ثلاثة من القواد مرشحين ليخلفوه ، أصغرهم ابن المارشال ، وما كان يؤمل أحد أن سيكون لهذا الشاب من الأمر شيء . إلا أن حزب الكومنتانج ، وقائد جيوشه ، كانوا يرجون أن يتمكن هذا الشاب من النجاح ، لأنه كان يميل إلى مبادئ الوطنيين بعكس أبيه ومنافسيه ، فقد كانت اليابان تعتمد عليهم في بسط سلطانها .

وانتهت المنافسة بين الثلاثة بأسرع مما كان مقدرا لها . فقد حدث مرة أن دعا المارشال الشاب زميله إلى الغداء ، وبعد أن تناولوا الطعام — وكان شهيا — أخذوا يتحدثون في السياسة ،

ويرشفون أكواب القهوة .. وقبل أن يفرغوا من القهوة أصدر الشاب أمره ، وأتم تضيف صاحبه بثلاث رصاصات أطلقت في رأس كل منهما ..

ومنذ ذلك الوقت أصبح المارشال الشاب ، شانج سو - ليانج سيد الصين الشمالية غير منازع .

ويذكرون ، أنه قبل أن يقرر الشاب التخلص من منافسيه أخرج رايلا من جيبه ، وأخذ يقترع عليه : هل يقدم .. أو يحجم . وظل ساعات في هذه الاستشارة ، حتى انتهى الأمر بالاقدام . ولما نجحت المؤامرة وضع هذا الريال - الذي قضى في شأن كبيرين من كبراء الصين - في صندوق ، وكان يعتز به .

وبعد عامين اجتاحت اليابان منشوريا ، وأرسلت لشانج كل متاعه إلا هذا الصندوق ، فقد غنمته ..

وقد منح المارشال الشاب ارملى القتيلين هبة مالية سخية .. هي ٢٠٠٠٠ جنيه لكل منهما تعويضا عن فقد زوجيهما .. فما أكرمه ! ونحن نقص هذا الحديث في عام ١٩٤٤ ، ونزوى حوادث مضى عليها ١٨ عاما ومن العسير أن يظل الشاب شابا بعد هذه السنين الطويلة . فهو الآن في السادسة والاربعين . ولكن سنظل

نطلق عليه لقبه الأول ، فهذا اللقب على كل حال أخف في النطق
العربي بكثير من الاسم الصيني ..

وما أن تولى المارشال الشاب الحكم ، حتى رفع علم حزب
الكومنتانج في منشوريا ، معلنا ولاءه للحركة الوطنية ، ومحققا
حسن ظن الوطنيين فيه . ولما طرد اليابانيون حكومته من
منشوريا ، باحتلال الإقليم كله ، استولوا على قصره الفخم ، وحولوه
إلى بيت لاستيلاء الكلاب الحربية !

وقد كان القائد الشاب ، أكبر عون ، للمارشال شيانج
كاى - شيك في تسيير سياسة الكومنتانج . وفي كل أزمة كانت
تواجه المارشال شيانج . كان صاحبنا يقف إلى جانبه ، ويأبى
أن يعاون أى حكومة أخرى لا يكون فيها شيانج .

ولما سقطت جيهول عام ١٩٣٣ ، أعلن أنه هو الذى يتحمل
مسئولية هذه الهزيمة ، حتى لا يفقد زعيم الصين وجهه ، أمام
حزبه ومواطنيه . وقد سافر إلى أوروبا ، ملحقا بنفسه هذا العار ،
مع أنه لم يكن مسؤولا عن هذه الهزيمة . بل كان من أكثر
المعارضين لسياسة السكوت على اليابان ، بعكس سياسة المارشال
شيانج كاي - شيك التى كانت ترمى إلى عدم التعرض لليابان حتى
تتوحد الصين ، وتخلص من الوباء الشيوعى الذى أصابها .

فهذه رجولة لاشك فيها من هذا الشاب العجيب الشأن ،
الذى يعد من أكبر أغنياء الصين ، وربما يرجع بعض الفضل في
هذه المواقف المشرفة إلى صاحبه المستر دونالد ، الذى التحق بخدمته
وكان له كآب . وأول ما عمله معه أنه خلصه من وباء المخدرات
بأن عالجه في أحد المستشفيات . وكان يدمن الأفيون ، فنصحه
اليابانيون بأن يستبدل الأفيون بالهيروين ، ولكن دونالد خلصه
منهما معا ..

وأثناء رحلة المارشال الشاب في أوروبا بصحبة دونالد علم أن
جيشه الشمالى الشرقى أخذ يشور ضد شيانج كاي - شيك فهرع
دونالد إلى الصين ليوقف هذا التحول الخطير ، ولم يلبث صاحبه
أن لحق به ، فهو لم يستطع اللقاه من غيره في أوروبا . وأخذ الرجال
الثلاثة : القائد الصينيان والصديق الاسترالى يعملون معا .

وفي سنة ١٩٣٦ كان مركز القوات المنشورية التى انسحبت
أمام اليابانيين يقع في شمال غرب الصين ، وكانت قيادتها للمارشال
الشاب . وعلم القائد العام أن جيش الشيوعيين عسكر في نقطة قريبة
من هذا الجيش ، فأوفد القائد الشاب إلى « سيان » لى يقضى
على القوات الشيوعية .

وبعد حين ثم المارشال شيانج رائحة غير مريحة من منطقة

« سيان » . فقد علم أن رجال جيشه يخاطبون الشيوعيين ، وهم معهم على وئام . وأن المعركة التي أمر بها لم تبدأ بعد . وعلم أيضا أن القائد الشاب ، حسن الرأي في جيش الشيوعيين . وأنه يبادل قواده المودة !

ولم ينتظر شيانج بيانات أوفر ، فقرر أن يسافر إلى « سيان » ليرى ما هنالك . فركب طائرته . وكانت زوجته مريضة ، فسافر إلى الشمال الغربي من غيرها ، ووصل إلى هناك في ٧ ديسمبر سنة ١٩٣٦ . وكان المستر دونالد صديق المارشال الشاب في نانكين يشاهد قصة في سينما . ولما خرج علم أن المدينة الكبيرة قلبت رأسا على عقب بحثا عنه . فأسرع إلى بيت مدام كونج زوجة رئيس الوزارة حيث وجد مدام شيانج كاي - شيك وعلم أن برفقيات جاءت من سيان بأن القائد الشاب اختطف رئيسه ، المارشال شيانج كاي - شيك ..!!.. فسأل دونالد :

— هل أتم على ثقة من ان « شانج » هو الذي اختطف المارشال ، وأنه لم تقم ثورة عسكرية هناك ؟
فأجيب بأن الأمر كما ذكر . فركب طائرته ، وذهب إلى سيان وقبل أن نصل مع دونالد نقص ما حدث .:

ف عندما وصل المارشال ، وأخذ يبحث الموقف العسكري لجيوشه

وجد أن القواد وعلى رأسهم القائد الشاب ، يرفضون المضي في هذه الحرب ضد الشيوعيين ، ويريدون توحيد الجهود ضد اليابان .
وبما قاله « شانج » لرئيسه :

— أنت أضعت حتى الآن سدس الصين ، ومع هذا لم تفكر في حرب العدو الأصيل . وما تزال كل جهودك متجهة إلى اصطلياد الفلاحين وقتلهم .

واربد وجه شيانج كاي - شيك غضباً ، وراح يكيل اللوم والتجريح لمنتقدي هذه السياسة ، وكان عنيفاً إلى حد مثير .
ولما وصل دونالد ، واقترح على القائد الشاب أن يترك الجيش إن كانت خطة الكومنتانج لا ترضيه ، أجاب بأنه لن يترك الحرب حتى يحرر أرضاً لا يزال أبوه مدفوناً فيها وهي منشوريا ، ويطرد آخر ياباني من الصين .

ولما وصلت المناقشة إلى حد استحالة معه الوصول إلى أى نتيجة قرر صاحبنا « شانج » العمل ..

ففي الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم التالي - ١٢ ديسمبر -
سمع شيانج كاي - شيك وهو يرتدى ملابسه ، طلقات نار خارج مسكنه ، واندفع أحد رجال حرسه إلى غرفته يقول إن الجنود

تمردوا . فقفز المارشال من باب خلفي الى الأرض ، قاصداً الحرب الى الجبال . وأصيب في أثناء سقوطه برضوض في ظهره .

وكان حرسه في الخارج قد أحيط به ، وقتل بعض رجاله . وبعد قليل عرف مكان المارشال ، وكان الذي رآه السكابتين سن ، الذي تقدم ساجداً أمامه ، وهو ينتحب ، وطلب من قائده الأعلى أن يسلم نفسه . فقال المارشال :

— اصمتوا أيها الخونة . إذا أردتم قتلى فعجلوا . .

ولم يتمكن شيانج من السير لشدة إصابته من سقوطه ، فحمل إلى السجن على محفة

ثم بدئت المفاوضات مرة أخرى بينه وبين شيانج... المفاوضات بين الأسر والأسير !!

قال القائد الشاب :

— إذا قبلت يا صاحب السعادة مقترحاتي فاني أطيع أوامرك فأجاب شيانج :

— إما أنك من أعواني وإما أنك من أعدائي . فإذا كنت صديقاً فننفذ الأوامر بغير مناقشة . وإذا كنت عدواً فلتقتلني بدون مناقشة ، وعليك أن تختار ، ولن أسمع لك بعد الآن . وفي مناقشة تالية قال شيانج للأسير العظيم :

— إنني أعلم أنك أعظم رجل في هذا العصر . ولكن لماذا

لا تلين قليلا ، وتضخى إلى رجائنا ، وتقودنا في هذه الثورة المقبلة
فهذا أكثر فائدة من أن تضخى بحياتك .

فأجاب شيانج كاي - شيك :

— إن ثباتي على موقعي ، وتضحيتي بحياتي ، أجدي على من
تغيير مبادئ . فاني قادر على أن أحتفظ بكرامتي حتى الموت ،
ولكن روحي ستعيش الى الأبد .

وعند ما تقدم شانج بمقترحات مكتوبة ، تحول للارشال الى
قطعة من الصخر ، لا يقول ، ولا يسمع ، ولا يأكل ، ولا يشرب
وأدار وجهه صوب الحائط . فقد كان الأمر أجلاً بكثير من كل
ما تصور .

وكانت هذه المقترحات في ثمانى نقط :

- ١ — إعادة تنظيم الحكومة الوطنية .
- ٢ — انتهاء الحرب الأهلية ، وبدء الحرب ضد اليابان .
- ٣ — الافراج عن الزعماء المعتقلين حديثاً في شنجهاى .
- ٤ — العفو عن جميع السجونيين السياسيين .
- ٥ — ضمان حرية الاجتماع .
- ٦ — إعطاء الحرية للشعب لكى يعبر عن عواطفه الوطنية
- ٧ — تنفيذ وصية الدكتور صن بات - سن .

٨ — الدعوة فوراً الى مؤتمر ليقرر إنقاذ الوطن .

وكان الشيوعيون من وراء القائد الشاب . وهم الذين وضعوا هذه المقترحات .

وفي هذه الفترة كان دونالد قد وصل بعد أن عاقت العواصف طائرته في الطريق . ولما دخل على الأسير ، وجده ملقى في غرفة باردة ، وهو صامت . فلما تبينه شيانج دهش لمرآه ، فما كان يقدر أن يسمح لأحد بالحضور من نانكين لرؤيته . وفاضت عواطف المارشال وتحدر الدمع من عينيه ، على وجه صلب كتمثال بوذا وكانت خطة دونالد ترمى إلى فصل القائد الشاب عن أعوانه الشيوعيين وغير الشيوعيين والسفر به ، وبالمارشال ، الى نانكين . ولم تكن مهمة الاسترالى العجوز هينة . ذلك لأن المارشال قد يقتل نفسه « لأنه فقد وجهه » وتمرد أعوانه عليه ألحق به العار . ولم تكن فلسفة دونالد مقبولة في الصين ، بلد الكرامة وحفظ السمعة . وهذه الفلسفة تقول : [إن إنساناً يعيش « فاقد الوجه » خير من مئة أسد ميت !!] وهذه فلسفة استرالية من غير شك !!

ثم إن ثورة القائد الشاب التي كانت متأججة خبت ، وتحول

الى إنسان خاطيء في نظر نفسه ، وأخذ يلح في طلب العفو من أسيره .

ومن ناحية أخرى فان حكومة المارشال في نانكين علمت بحادث الاختطاف المروع ، فقررت أن تسير الجيوش فوراً لسحق « سيان » ومن فيها : وكان كل هم مدام شيانج أن تحول دون إصدار هذه الأوامر ، لأن استعمال القوة سيؤدي حتماً إلى قتل زوجها . واقترحت الحكومة أن ترهب المتمردين على الأقل ، فترسل طائراتها لذلك المدينة المجاورة لسيان . ذلك لأن الجميع كانوا يرجحون أن المارشال مات ! إما انتحاراً أو برصاص المتمردين . ومثل هذه الحركة الطائفة ، فيها - بالقليل - تكريم لذكري المارشال الراحل ! !

ولكن « السيدة » رفضت هذا التكريم . . فما جدوى قتل الآلاف من الصينيين هنا وهناك .

إلا أن المارشال عندما علم برغبة الحكومة تهلل فرحاً ، فقد خلف وراءه أعواناً صادقين . . وأحب جداً أن تتم خطة الحكومة إلا أن دونالد في سيان ، و « السيدة » في نانكين كانا على اتصال بالتليفون أو بالبرق ، وكانا متفقين على وجهة النظر وعلى الخطة التي يجب أن تتبع . . وكانت حطة جريئة خطيرة

ظهرت طائرة في سماء سيان ، وكان سادة المدينة العسكريين يعلمون أنها تقل مدام شيانج كاي - شيك ، وقد احتشدوا في المطار للقائها ، وهبطت الطائرة ، وظهرت « السيدة » التي جاءت مختارة الى عرين الأسد ، ووضعت نفسها بين فكيه .

تقدم نحوها شانج القائد الشاب يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، فهشت في وجهه ، وسلمت عليه بحرارة ، لأن لم تكن بينهما أشياء وأقبل « يانج » القائد الثاني في المؤامرة ، فصاحته أيضا مبتسمة .
طلقة المحيا .

وكان دونالد قد قابلها في الطائرة قبل نزولها منها ، فأعطته مسدسا . وقالت له في حزم :

— إذا أخفقت خطي فأطلق الرصاص على رأسي بدون أي تردد .

ولما نجح اللقاء على هذه الصورة ، ولم تظهر بوادر الشر ، نهذ دونالد ، فقد كان يرزح تحت هم ثقيل ، ولم يعد يحس بالمسدس في جيبه ، وكان قبل دقيقة يحس به كأنه قنطار من حديد .
وقالت السيدة للقائد الشاب :

— أرجو أن تأمر بعدم تفتيش حقائبي . فاني لا أحب أن يحس أحد متاعى . فأجاب :

— عفوا سيدتى . ما كنت الذى يجزأ على إصدار مثل
هذا الأمر بالتفتيش .

واقترحت السيدة قبل أن تذهب لرؤية زوجها ، أن تشرب
كوبا من الشاي مع القائدين . فرحبا بها .. وفى أثناء الشاي بدأ
الحديث ، وعرفت مدام شيانج الفطنة اللبقة كيف تحول هذين
الرجلين ، إلى بشر مهذبين يراعون أدق الواجبات ، ويتوقون
إلى أن يظهرأ أمامها بمظهر « الجنتلمان » الصحيح .

وتم الاتفاق بينها وبين القائد الشاب على كل شيء ، دون أن
توقع ورقة ، أو تعطى حتى مجرد وعد بشيء ..

أما كيف التقت السيدة العظيمة بزوجها فى سجنه فقد وصفه
هو فى مذكراته بقوله :

« ذهلت لمراها ، حتى لكأنى كنت فى حلم . وكنت علمت من
أخيها فى اليوم السابق [كان قد حضر لى سيان] أنها قد تأتى ،
فاعترضت على مجيئها إلى هذا المكان . وما أن رأيتها تسخر بالخطر ،
وتهزم الخوف ، وتقتحم عرين الأسد حتى هزنى مراها من الأعماق هزا
عنيفا وحتى أحسست برغبة ملحة فى البكاء ..
وقد جاهدت زوجتى أن تبدو مرحة .

« وكنت شديد القلق على سلامتها . ومنذ عشرة أيام فضيت على
كل خاطر يساورنى فى أن أحفظ بسلامتى .. أما الآن ، فقد تبدل
الأمر تماما لا بالنسبة لى ، ولكن بالنسبة لها .
« انها جسورة ، حكيمة ، رحيمة .

وعندما ظن الجميع أن السماء صفت ، تلبت فجأة بنعيم كفيف
فقد كان الاتفاق مع القائد الشاب ، ولكن الجنرال يوان
- التالى له - لم يقر الأمر ، فقد خشى أن يَحْتَمِل عَنقَه نَتِيجَة هذه
المؤامرة ، وأن يدفع هو الثمن ، بينما ينجو الشريك الأول .

وبعد أن أعدت الطائرة ، وأديرت مراوحها ، رفض يوانج
أن يطلق مراح المارشال ..

وتعقد الأمر تعقدا عجيبا . ولما بدا ألا حل لهذا الاشكال ،
خطرت لمونالد فكرة ، وهي أن تستقبل « السيدة » ، وزوجها ،
زعيم شيوعيا . ولما لم يقابلا شيوعيا من عشرة أعوام . وستؤدى هذه
الخطوة إلى أن يستوثق الجميع أن سياسة الوفاق جد لا هزل فيه ،
وأن الجبهة الوطنية حق لا يداخله زيف . فالمارشال سيضع يده
في يد واحد من أبغض الناس إليه .. وهنا لن يجد إنسان سبيلا
إلى معارضة المارشال ..

ووافقت « السيدة » على مفض . ونجحت الخطوة ، وفتح
السجن أبوابه ، وخرج الزعيم مع زوجه إلى الطائرة فورا ، ومعهما
دونالد .

وكان المارشال قبلها قد استقبل القائد الشاب ، وألقى عليه
محاضرة أخرى وأخيرة . فلما هم بالرحيل عرض « شانج » أن

يعود إلى نانكين في ركاب زعيمه — الذي كاد يخونه — فأبى شيانج كاي — شيك عليه ذلك . ولكنه أصر على أن ينفذ خطته ، وانسل إلى الطائرة وركب بجوار السائق .

واستمر سجن القائد العام ثلاثة عشر يوما ، من اختطافه إلى إطلاق سراحه .

وهناك في نانكين ألح « شيانج » في أن يقدم للمحاكمة . وقال شيانج انه سيعفو عنه . واكتفى بنقله من قيادته إلى مكان بعيد .

أما يوانج ، فقد منح ٦٠ ألف جنيه ، وأجازة يطوف فيها حول العالم ..



وهكذا انتهت هذه المحنة العجيبة التي حلت بالزعيم الوطني ، وكادت توقع الصين كلها في خطر محقق .

ولكنها من الناحية الأخرى أهدت الصين فائدة كبرى . فقد « تأمل » شيانج كاي — شيك في كل ما حدث ، ورأى أن هناك « شيئا » ما قد حدث في الصين ، هو الذي دعا إلى أن تأتي جيوشه قتال الجيش الشيوعي في « سيان » ، ولم يكن الخطأ كله خطأ القواد . ذلك لأن الجنود أنفسهم تقابلوا ..

هذا « الشيء » هو أن الصين في أعماقها ملت قتال الصين .
ولا سيما أن العدو قد اخترق باب الوطن ، وسار خطوات في
أحشائه ...

هذا « الشيء » هو أن الجهود الكبرى التي كان يبذلها
المارشال لتوحيد الصين بقهر الخارجين على الوحدة من الشيوعيين ،
قد تتأني بوسيلة أخرى ، وهي توجيه الجميع للعدو الذي يتفق
الكل على قتاله ، ولا يختلفون ...

واژه فلتعلی الحرب علی اليابان

وحسبت اليابان أن تحرك شيانج كاي - شيك ضدها ليس
إلا حادثا من الحوادث سرعان ما ينتهي . وأخذت تطلق كلمة
« الحادث » على حربها في الصين حتى بدأت غزوها الكبير لآسيا
من ثلاثة أعوام . ذلك لأنها رأت أن الأمر خطير جدا .

واذن فقد استفاد الوطن الصيني من درس « سيان » الذي
ساقه القدر دون اعداد كبير ، أو ترتيب سبق حدوثه .

واستفاد الشيوعيون أيضا . فقد كان في وسعهم أن يظفروا
برأس المارشال في « سيان » . ولكنهم تصرفوا تصرفا أحسن ،
فقد كفوا عنهم — ولو إلى حين — عداوة الكومنتانج كله .
وأخذوا جميعا يتكاتفون ، ويتزاملون في كفاحهم ضد الغزاة .

وجهاً لوجه

أنشد شاعر صيني :

- تهب ريح الغرب الباردة ، فتلاعب بمعطفى القديم الذى خضت به المعركة .
- ويمتلىء فؤادى أسى وحسرة ، عندما أرى على معطفى بقع الدم الأحمر .
- لم أعد أملك الآن فى هذه الدنيا غير اثنين : قلب مخلص وروح شجاع .
- وسيظل قنبي وروحى معى إلى الأبد ، على الرغم من الثلج والبرد اللذين يحيطان الآن بى .

سبر الزمن

قليل ما يمكن أن نقوله عن حرب شيانج كاي - شيك ضد اليابان في سبع سنين ، وعمما قريب تستقبل الحرب عامها الثامن .. وليس ما نقوله قليلا ، إلا لأن المعركة لم تنته بعد . ولا تزال الصين تحمل سلاحها ، وتتابع كفاحها ، ضد جيوش وفيرة العدد والعدة . ويحتمل الفريقان خسائر جسيمة . ولكن خطة الدفاع الأولى التي يتبعها القائد الأعلى ، هي أن يكسب الوقت ، ويستخدمه كأقوى سلاح في يده .

وقد نجحت هذه الخطة نجاحا غريبا ويترتب عليها . إن لم تحصل مفاجآت ليست في الحساب — أن تسترد الصين حريتها ، وأن يظفر زعيمها بوحدة بلاده ؛ وبأن يجلسها في مكان كريم بين مجموعة الدول الكبرى حقيقة استولت اليابان على شواطئ الصين كلها ؛ وحصرتها بحراً .

وحقيقة خسرت الصين جميع موانئها التي كانت تدر على ميزانيتها قسماً كبيراً من إيراداتها .

وحقيقة بلغ مجموع سكان الأراضي التي استولت عليها اليابان ٢٠٠ مليون نسمة . . كل هذا صحيح ، ولكن . .

لكي تستبق اليابان سلطانها على هذه الأرض وهؤلاء السكان فلا بد لها من أن تحتفظ بجيش يبلغ — قبل شن الهجوم الأخير — ٨٠٠ ألف جندي . وهذا غير جيش الاحتلال في منشوريا .

ولكي تتابع اليابان حربها الهجومية ، فهي تخسر شأن كل مهاجم . . وخسارة المدافع عادة تكون أقل إذا كان خط انسحابه مفتوحاً وراءه . ووراء المارشال شيانج كاي - شيك ثلثي الأرض الصينية . ولكي تظل اليابان محتفظة بمركزها الحاضر ، فإنها تنفق على الحرب ، وعلى مناطق الاحتلال نفقات مستمرة . وليست اليابان من الأمم الغنية ، فضائقتها الاقتصادية هي التي دفعتها للحرب ، لا تخمها بالثروة . وكلما طال الزمن ازدادت النفقة ، واشتد الضغط الاقتصادي في داخل اليابان .

ولقد فقدت اليابان أعصابها فعلاً من طول الزمن . إذ أنها قدرت عندما شرعت في الرد على تحدى شيانج لها أنها ستقضي على جيشه في ثلاثة شهور . فلما أصبحت الشهور ، أعواماً أخذت

تجاهد لسد جميع المنافذ التي تصل منها المعونة أو التجارة للصين .
فتحرشت بفرنسا لأن لها مستعمرة (الهند الصينية) ، في الجنوب .
وضاقت بانجلترا لأنها فتحت طريق بورما الذي يبلغ طوله
٢١٠٠ ميلا . وأسأماها الدولار الأمريكي الذي بدأ يتسرب
لحكومة الصين بعد أن استحوذت الجيوش اليابانية على كثير
من مصادر الثروة واللدن الكبيرة ...

ولم تجد اليابان مناصا من أن تعلن حربا جديدة .
فأما فرنسا فقد خرت صريمة في عام ١٩٤٠ وأمكنها بسهولة
أن تضع يدها على مستعمراتها الجنوبية .
وأما إنجلترا وأمريكا فقد أعلنت عليهما الحرب . .
وهكذا حقق شيانج كل الغايات التي يرجوها ، فأصبح يعاونه
في حرب اليابان أكبر أساطيل العالم ، وأعظم مصانع الأسلحة
في الدنيا .

ولقد حاولت حكومة طوكيو بكل وسيلة أن تقنع المارشال
بأن يكف عن حربه لها فلم تفلح .

عمد رئيس وزارتها السابق الأميرال توجو الذي أعلن الحرب
على الدول الديمقراطية إلى الراديو ؛ وأخذ يخاطب عن طريقه زعيم
الصين قائلا له : ضع المعاهدة التي تعجبك ، وأمل شروطك كما

تريد ، وستقبلها اليابان . فلم يرد عليه المارشال الصينى بكلمة واحدة . . .

وهكذا كادت اليابان تجثو على قدميها أمام الصين التى لم تنتصر بعد فى معركة واحدة ، ولكن بدون جدوى . ذلك لأن اليابان حسبت الحرب حساباً حسناً ، فوجدت أنها ستبقى فى الصين مليوناً ونصف مليون من الجنود، ثم هى تريد بعد هذا مواجهة الأمريكان والإنجليز .. فكيف يتأتى هذا . لابد من مصلحة هذا الزعيم . العنيد بأى ثمن .

وحسب الزعيم العنيد حسابه ، فوجد أنه استطاع أن يصبر على الحرب مع اليابان منفرداً خمس سنين ، فكيف يتخلى عن كفاحه وقد ضمن مؤازرة عسكرية فعالة من الخارج . . .

وهكذا صدق المثل الصينى الذى يقول أنك إذا ركبت على ظهر النمر فكيف تستطيع النزول على الأرض .

فقد تفاجىء النمر فثب فوقه ، وقد تبقى فى هذا الوضع الخطر فترة من الزمن ، ولكن ما ان تهبط أرضاً حتى تتلففك أنياب هذا النمر ، وقد ملأته جراثيم غضبا . . .

وكل ما تعتمد عليه الصين الآن فى حربها ضد اليابان ، هو الإبقاء على جبهة قتال فى الأرض الصينية ، لأن هذه الجبهة تمتد مسافة كبيرة جداً كانت تبلغ ٢٣٥٠ ميلاً قبل عزل الصين الأخير

كما أن هذه الجبهة تعمقت الآن في داخل الأرض الصينية . وتموين هذا الخط الطويل يحتاج إلى جهود هائلة ، لأن أسوأ ما الصين في مواصلاتها . فلنكن نقول جيوشك في أرض مساحتها نحو مليون ميل مربع ، لابد من إنشاء طرق ومطارات وكبارى وبعض خطوط حديدية ، وكل هذا تضطلع به القيادة اليابانية ، أو تحملها القيادة الصينية على أن تقوم به ، وأن تحافظ عليه محافظة تامة .

ذلك لأن المارشال شيانج نظم حرب العصابات تنظيماً دقيقاً وراء الخطوط اليابانية . فكل ما يبنونه يهدم ، وفي هذا تجد اليابان أعظم المشقة . .

ويقود المارشال شيانج كاي - شيك جيشاً يبلغ مليون ونصف مليون جندي . وثالث هذا العدد مدرب تدريباً تاماً على حرب الخطوط الأمامية . وعند ما يجد القائد العام السلاح الذي يلزمه فيتمكن من توجيه هذا الجيش كله للهجوم بدلاً من الدفاع .

وعلى ذكر الجيش الصيني ، نقول إن قواده يجنون مشقة كبيرة في تكوين جيش موحد من المجندين القادمين من أنحاء متباعدة تختلف لهجاتها [رغم أن اللغة واحدة كما ذكرنا] ، وتختلف عاداتها ويختلف طعامها .

وهذه المشقة تحمل في طواياها نعمة فهي حقيقة مرهقة من

وجهة النظر العسكرية . ولكن بعد أن يتم مزج هذه الوحدات وتوحيدها على نطق واحد وحياة مرتبة ، ستكون في المستقبل نواة الصين الجديدة التي كافح صنيات — سن وحواريه شيانج كاي — شيك في سبيل إيجادها .

ولقد سار حزب الكومنتانج وحكومته خطوات حسنة في سبيل نشر التعليم وتوحيد الصين عن طريق المدرسة والجامعة . واليابان تعلم هذا جيدا ، وتخشاها جدا ولهذا حق ما يقال من أن كل مدينة يظفر بها الجيش الياباني يبدأ بالمكاتب العامة والجامعات فيحرق كتبها حرقاً ، لأنه يخشى من هذه الكتب أكثر مما يخشى الأسلحة الصينية .. ففيها الصين المقبلة . وأما الجيش والحرب فهي صين اليوم .

بل لقد ذهبت اليابان إلى ما هو أبعد من هذا، فهي تعرف أين توجد المدارس والجامعات في أنحاء الصين المترامية . وترسل طائراتها ، لا لتضرب كبريا ، أو خطا حديديا ، أو ثكنة ، ولكن لتدك هذه المعاهد العلمية . فهي عندها أخطر هدف عسكري يجب تدميره قبل غيره .

وهذه الطائرات التي توغلت في الصين إلى مسافات بعيدة ، قالت لسكان المناطق النائية — وربما للمرة الأولى — أن في البحر

الشرق جزيرة اسمها اليابان ، أرسلت عساكرها لاحتلال أرض الوطن . فيسعى أهل هذه المناطق حفاة إلى زعيمهم لكي يحاربوا معه ويموتوا فداء وطنهم .

وإذا كان شيانج كاي - شيك قد أفلح في شيء ، فقد عرف كيف يستغل غلطة اليابان بمحاولتها احتلال الصين العسكرية [كانت تستطيع بلوغ أهدافها الاقتصادية بطريق آخر] ، وينفخ في بوق يدوى صوته في أنحاء هذه القارة العظيمة لكي يوقظها على معنى يطرق الآذان للمرة الأولى : وهو أن الصين - أم الجميع - في خطر ، فتكاتفوا لإنقاذها . .

وللمرة الأولى و بفضل اليابان أيضا - ظهر في الصين زعيم ، حاكم ، لا يعتمد على صفته الدينية مثلما كان الأباطرة السابقون ، وإنما يعتمد على إخلاصه لبلاده وكفاءته الذاتية لكي يجمع حوله حب و طاعة الملايين العديدة من البشر . . وهو بعد هذا على دين ليس هو دين هذه الأمة الكبيرة أغليتها وأقليتها !

وفي هذه النقطة يختلف شيانج كاي - شيك كحاكم للصين عن الميكادو ، وغاندى . فأولهما ملك ، وثانيهما زعيم . . . و طاعة قومهما لهما مشوبة بنوع من التصوف الديني .

الاربعاء غداً أنوارها مع السمرح القنف فية.



الحرب والسلام

الجراحات الدامية التي تدمى في جسم الصين .. هذه الأرض
الطيبة الوادعة ، ستلتئم بعد حين . ولا يحتاج شيانج كاي - شيك
إلى أكثر من أن يفتح طريق إمداده من حلفائه الديمقراطيين ،
ولديهم الكثير مما يحتاج إليه .

وأما قبل هذا .. قبل فتح الطريق ، فلن تستطيع اليابان
أن تدفع الحكومة الصينية إلى التبت مثلاً في الركن الجنوبي
الغربي . كما أن الصين وحدها ، وفي ظروفها الحاضرة لن تستطيع
أن تلتقي باليابانيين في البحر ..

والمدد المنتظر ليس طريقه من بورما التي سمع الناس كثيراً
عنها . ففي بورما حقيقة طريق ذكرنا طولها . ولكنها لا تكفي
لنقل الحربي بالكميات التي تحتاجها الصين ، كما أنه معرض للسيول

الاستوائية في الصيف . وكثيرا ما تكتسح هذه السيول الكبارى
والمواصلات الصناعية في الطريق .

ولكن البحر هو الطريق الأهم ، الذى يحمل أكاداس
الأسلحة والأغذية والمهمات ، بعلايين الأطنان إن أراد الحلفاء .
أما وقد فتحت الولايات جبهتها الجديدة في الفلبين ، وقررت
الاستيلاء عليها فيجب أن تكون وثبتها التالية على فرموزا ، ثم على
شاطئ الصين الشرقى حيث تتصل جيوشها بجيوش المارشال
شيانج كاي - شيك .

وقد ذكرنا أن اليابان حاولت من عامين أن تعرض صلحا عن
طريق الأثير على زعيم الصين . وليست هذه هي المرة الأولى التي
تمت فيها هذه المحاولة .

فقد استولت الجيوش اليابانية على عاصمة الصين بكين ، وكانت
تظن أن الصين ستلقى السلاح ، ولكن المارشال انسحب إلى مدينة
جديدة اتخذها عاصمة ، ثم نالته وهكذا .

وفي سنة ١٩٣٧ — عند سقوط بكين — حاول سفير ألمانيا
أن يعرض الصلح على المارشال باسم اليابان . فزاره ، واستقبلته
— كالعتاد — مدام شيانج ، وقدم لها وثيقة الصلح ، فألقت عليها
نظرة ثم قالت للسفير :

— إني أمر إذا رأيتك مرة أخرى .. هل تتكرم وتخبرني
عن حال أطفالك الأعزاء .

« فتكرم » وحدثها عن الأطفال ، ولم يدر أى حديث عن
الصلح . وغضبت اليابان غضبا اسود من هذا الرفض لشروطها ،
وقررت أن تسحب اعترافها بحكومة الكومنتانج . وأعلنت أنها
عما قليل ستقبض على شيانج كاي - شيك ، وتقطع رأسه كنائر
متمرد !!

وفي ديسمبر سنة ١٩٣٨ أعلنت طوكيو شروط صلح
جديدة هي :

١ — اعتراف الصين بحكومة منشوكو التابعة لليابان ، وانضمامها
لميثاق مناهضة الشيوعية .

٢ — تصبح منجوليا الداخلية منطقة « لاشيوعية » خاصة .

٣ — احتلال مناطق مختلفة من الصين بالعساكر اليابانية .

٤ — فتح الصين - ومنجوليا الداخلية - ومقاطعات الشمال
الحس للنفوذ الاقتصادي الياباني .

٥ — حل حزب الكومنتانج ..

ولم تجب الصين طبعاً على هذه الشروط المهينة .

وفي أوائل سنة ١٩٣٩ أعلنت مدام شيانج كاي - شيك

الحد الأدنى لشروط الصلح . وكانت الصين وقتها قد يئست من
معاونة الدول وعصبة الأمم لها . وكانت هذه الشروط : سلم مع
الشرف يعترف بسيادة الصين على أرضها ، واستقلالها الإدارى وأن
تعامل الصين دوليا على قدم المساواة مع غيرها .

وفي سنة ١٩٤٤ ، بعد أن تطورت الظروف الدولية هذا التطور
للمدهش لمصلحة الصين ، لم ترض الصين بغير الاستقلال الكامل مع
كل وسائل تأمين المستقبل ، وقد يكون من وسائل التأمين
الاشترك في احتلال اليابان !!

وإذا كانت الصين قبل اليوم تتخبط في ظلام الوحدة ، فقد
استبان الآن طريق النصر أمامها ، وعرفت من أين وكيف تظفر
باستقلالها التام الذى تريده ..

وإذا كان شيانج كاي - شيك قد كابد خلال السنين الماضيات
كل هذه المشقة لكى يشق أمام وطنه طريقا غير طريق العبودية
فإن أمامه طريقا أطول ، وجهادا أعنف لكى يكسب السلم .



معركة السلم

كانت الصين مطمورة طوال ٤٠٠٠ سنة تحت طبقات من التراب أهالها عليها الزمن ، وفساد الحكم ، ورداءة المواصلات ، وإهمال المرافق العامة ، وسوء الظروف الاقتصادية .

وهب الدكتور « صن » يزيج عن بلاده أكديسا بعد أكديس من هذا التراب . ثم كانت الحروب التي كادت تززع الثقة بمستقبل هذه البلاد . ولكن هذه الحروب ، كانت أيضا من العوامل الهامة في يقظة هذا الجسم الهائل المترامي الأطراف الذي كان مستلقيا على الأرض يغط ، ولغطيته صوت منكر غليظ .. فقد تحرك .. ثم استيقظ .. ثم تشاءب وتمطى .. ثم وقف على رجليه .. ثم أخذ يفرك عينيه بيديه ، ويجرب كيف يحرك أطرافه .. وبقي عليه أن يستخدم جسمه كله فيما خلق الله من أجله الأجسام : حركة ونشاطا وانتاجا .

ولحكومة المارشال شيانج كاي - شيك ، ولحزبه
- الكومنتانج - برنامج انشائي من الطراز الأول يحاول الجميع
تنفيذه مسترشدين بثقة من رجال الغرب ، ومعتمدين على شباب
الصين الذين تلقوا تعليمهم في أعظم جامعات العالم ..

وقبل كل شيء ، تهتم الحكومة الصينية - ومن حقها أن تفعل -
بانماء الشعور الوطني بين السكان ، وتذكيته ، لا بضغط الحرب .
ولكن بالعوامل التي تجعله طبيعة أصيلة في نفس كل صيني ..
حقيقة كان غزو اليابان سببا هاما في أن عرف الصينيون بوضوح
كل ما تدل عليه كلمة «وطن» . ولكن سيأتي يوم تنتهي فيه غارة
اليابان على جارتها ، وتبقى الصين لمصيرها .. وفي انتظار هذا اليوم
يعمل المارشال وأعدائه على تنظيم أمته تنظيمًا داخليا دقيقاً .

وقد بدأ .. بدأ بالمجالس البلدية والمحلية .. مجالس الأقاليم التي
تهتم بالمرافق المحلية ، وتعلم الناس كيف يتعلمون أن لهم حقا في
حكم أنفسهم ، وحقا في الاشراف على أداة الحكومة ..

أدخل حديثا نظام الإدارات الإقليمية المستقلة استقلالا جزئيا
[وهو أضيّق نطاقا من نظام الولايات المتحدة] .. كان ذلك في عام
١٩٤٤ . وقد دلت احصاءات وزارة الداخلية الصينية الأخيرة ،
على أن هذا النظام طبق في ٣٤٢٣٠١ بلدة - وهي أصغر وحدة

إدارية في الصين . وهذا الرقم يبدو كبيرا .. ولكن لا تنس أن مساحة الصين أكبر من مساحة أوروبا !!

ولا جدال في أن المثابرة على نشر هذا النظام ، وإشعار الأهالي إشعارا جديا بأن أمرهم . وكول إليهم سيبدل من العقلية الصينية القديمة التي كانت تعتمد اعتمادا كلياً على حكومة مركزية تترك لها التصرف في كل مقدراتها دون تدمير ، أو استقراء لرغبات الشعب وحاجاته ...

وهذه هي الخطوة الأولى نحو الديمقراطية .

والواجب الثاني الذي تضطلع به الحكومة الصينية هو التعليم ونقل هذه الملايين الهائلة من حالة الجهالة المظلمة إلى نور العلم ليس بالأمر الهين . إن بلادا يقل عدد المتعلمين فيها عن ١٠٪ ، تحتاج إلى اعتمادات ضخمة لكي توجد أداة التعليم من مدرس وكتاب ومدرسة .

ولقد تعاونت وزارة المعارف مع المجالس الإقليمية تعاوناً وثيقاً لنشر التعليم في الصين ، فأنشأت برنامج السنوات الخمس عام ١٩٤١ ، لكي تنشر بموجبه التعليم في ١٨ مقاطعة من مقاطعات الصين . وتشرف هذه الوزارة ، منذ أنشئ الحكم الوطني الجديد على

ربع مليون مدرسة ، معظمها من المدارس الشعبية وعدد التلاميذ في هذه المدارس ٣٦ مليوناً من التلاميذ .

ويقضى نظام السنوات الخمس بإنشاء مدرسة في كل بلدة بالصين ، أى أنه بعد عامين سيتم إتمام هذا البرنامج ، إذ تدل الإحصاءات الأخيرة على أن العمل يسير في سبيل الانجاز كما قدر له مع اختلاف يسير .

والصين بلاد ضخمة كما قلنا . وبعد أن يتم هذا البرنامج ، سيتبقى في الصين ٤٦٠ر٦٨٣ر١٥٤ أمياً ، لابد من تعليمهم حتى يقال ان الأمية محيت من الصين ، وهذا الرقم يمثل ٠.٣٤٪ من عدد السكان .

ولكن إذا وصلت الحكومة في آن قريب إلى أن ترتفع بنسبة عدد المتعلمين إلى ٠.٦٦٪ فهذا نصر كبير للإرادة القوية ، والعزم الأكيد على السير في طريق الحضارة والتقدم .

وبهذه المناسبة نذكر أن مشروع مكافحة الأمية في مصر ، الذى قدر له أن يتم في ٤ سنوات سيعلم ٠.٢٠٪ من عدد السكان فقط وبهذا تكون الصين قد سبقت مصر ، على الرغم من وجود كل أسباب التيسير في مصر ، ووجود كل أسباب التثبيط والتعسير في الصين . إلا أن مكافحة الأمية هناك ، تتم وسط موجة كبرى من

الحماسة الشعبية العظيمة ، وقد جعلت فريضة وطنية مقدسة على
كل قادر . أما عندنا في مصر ، فالأمر يسير في «رونين» حكومي
عادي ، لم يجند له الاحساس القومي العام بعد .



يخلق انتشار التعليم ناشئة صنية جديدة
تهم بالحرية وتهتف بها

وسيساعد نشر التعليم في الصين ، بهذه المهمة التي تبذل الآن ،
على أن تباشر الحكومة الصينية حياتها الدستورية ، وتحافظ عليها
من كل عبث .

وعندما يطبق الدستور تطبيقا تاما ، فسيكون نواب الأمة في
مجلسها التشريعي ١٢٠٠ نائبا .

وقبل الحرب جرت انتخابات ، فكان عدد النواب ٩٥٠ نائبا
وتواجه وزارة الداخلية الصينية مشكلة معقدة الآن ، وهي
إحصاء عدد سكان الصين !! ذلك لأن كل نائب يمثل عددا معينا
من السكان .

ومن المقرر الآن ، أن يجتمع أول مجلس كامل للنواب
الصينيين بعد عام واحد من انتهاء الحرب .



والتعليم ، وتنمية الشعور القومي ، سيجعلان من الصين أمة
متحدة متماسكة من الدرجة الأولى ، لأنها ستعرف - للمرة الأولى -
كيف تحكم نفسها حكما يؤيده ويسنده كافة أفراد الشعب
الصيني .

ولكننا نلمح بين حين وحين صحافة اميركا ، تحاول أن تلتقي

بعض الغموض على مستقبل الصين ، وتستمد هذا الغموض من حاضرها .

وأما الآن بحث لخصته مجلة المختار لأحد الصحفيين الأميركيين الثقة في المسائل الصينية قال فيه : « لعل مستقبل المحيط الهادى . ومنطقته ، أهم للولايات المتحدة مباشرة مما عسى أن يحدث بعد الحرب في بولندا أو يوغوسلافيا ، أو فرنسا ، أو اليونان .

» وسيدر الأوربيون أمورهم بمعونة أو بغير معونة منا بعد الحرب . وقد أوضح ذلك في الشهور الأخيرة ، الروسيون ، والفرنسيون ، والبريطانيون ، والهولنديون ، والبلجيكيون وغيرهم . وأكبر حلقائنا - وهم البريطانيون والروس - معنيون بمستقبل أوروبا أكثر من الأميركيين ، ومن أجل هذا ارتبطوا في أوروبا بما لاتزال تتردد فيه . »

ومعنى هذا الكلام أن أوروبا وشؤونها تهم الدول الأوربية ، ولا تستطيع أميركا أن توليها من العناية ما تستحق . أما آسيا فالأمر فيها يختلف ، ويجب أن يكون لأميركا الكلمة الأولى في شؤونها .

ويؤيد هذا المعنى ما استمر فيه الكاتب . إذ قال :

« ولكن الأمر على خلاف ذلك في المحيط الهادى ، فقد أخذت اميركا فيه على عاتقها عهدا جسيمة ، دائمة . وقد تقبلت المسؤولية عن إقامة نظام بعد الحرب في آسيا بعد نزول اليابان كدولة عسكرية . »

وإذن فلن تكون الصلات بين اميركا ، وبين الصين صلات عادية ، لأن لأميركا تبعات جسيمة ودائمة نصت عليها المعاهدات ، وقضت بها هذه الحرب التى تدور الآن ، والتى سترتب عليها تحرير الصين ، وإعادة الأجزاء التى انتزعت منها إلى الحكومة الوطنية ..

ولكن هل يمكن أن تكون هذه التبعات من النوع الذى كان موجودا قبل الحرب فى صورة امتيازات ، ومناطق نفوذ ، وتدخل فى أدق خصائص السيادة للحكومة الصينية على أرضها .. لانظن أن ذلك كذلك، لأن الصين أحسنت استغلال الظروف الحاضرة ، وعرفت كيف تتخلص من معاهدات الامتيازات الاجنبية ، معتمدة على حاجة حلفائها لها فى صراعهم الحاضر .

فى أوائل سنة ١٩٤٣ عقدت الحكومة الصينية اتفاقيات مع

حكومتى لندن ووشنطن تنازلت بمقتضاها الحكومتان الأخيران
عن امتيازاتها فى الصين .

اذن فلن تعود هذه الامتيازات ، التى كانت لعنة على كل أمة
رضيت بها ورضخت لعبوديتها ..

واذن فماذا يقصد الكتاب الاميركيون بالإشارة إلى التبعات ،
وضرورة التنبه للمستقبل ؟.. لا يتردد الكاتب الذى نشير إليه فى
التصريح بأن الصين لا تصلح لأن تكون دولة من الدرجة الأولى
فهو يقول :

« إن من الخطأ الشديد ستر الحقائق الحالية عن الصين ،
لأن ذلك يوهم الأميركيين أن كل ما علينا فى الشرق الأقصى هو
أن نهزم اليابان ، فيسعدنا حينئذ أن تنفض يدنا من الأمر كله ،
وندعه لأصدقائنا الصينيين . وهذا خطأ ، لأنه لا يساعدنا على أن
ندرك الكنه الصحيح لتعهداتنا التى ارتبطنا بها فى آسيا . ومؤدى
ذلك أن نعجز عن النهوض بهذه التبعات »

واذن فهناك دعوة إلى عدم ترك الصين لشأنها بعد الحرب .
وتستند هذه الدعوة إلى تصريح مبهم منسوب للرئيس روزفلت
يقول فيه إنه « دائماً يذهب إلى (١) وجوب معاملة الصين كدولة

من الطبقة الأولى لمنع الحرب في منطقة المحيط الهادى من التطور إلى حرب بين البيض والشعوب الملونة (٢) ويقرر أن الصين ستكون في مدى جيل أو جيلين دولة من الطبقة الأولى «

ويعلق الكاتب على هذا التصريح بقوله :

« لا ينبغي أن يعمينا العطف على الصينيين - بالغا ما بلغ - عن الحقيقة الواقعة وهى أن الصين ليست دولة كبرى . وأنها لا يمكن أن تصبح كذلك قبل جيل أو جيلين على الأقل ! »

ويختتم الكاتب بحثه بقوله :

« إن السلم في المحيط الهادى بعد هزيمة اليابان ستكون سلبا قلقا جدا ، ولا سبيل إلى الاحتفاظ بالسلم إلا بأدق فهم وأعظم حلم وصبر من جميع من يعنيه الأمر . وسيتطلب نصيب امريكا من هذا السلام مستوى عاليا من الاقتدار السياسى واحتفاظا بقوة اميركية عسكرية وبحرية إلى أجل غير مسمى » .

ولو كان هذا رأيا فرديا لما حفلنا به ، ولما كان له كل هذا الاهتمام في كتابنا . ولكننا رأيناه يتردد أكثر من مرة وبأساليب مختلفة في الصحافة الاميركية .

ومن حق اميركا الآن التى تعد المعينة الأولى للصين في كفاحها

من أجل حريتها أن تتكلم كما تشاء . وأن تصف الحكم الصينى كما تريد ، وأن تنزله للنزلة التى تراها تتكافأ مع مستواه الحضارى .. ولكن من حق الصين أيضا أن تمنع النظر فى هذا الكلام ، وأن تفتش على البواعث التى تحمل كتابا فى اميركا يقودون الرأى العام هناك ، على أن يقولوا ويؤكدوا ، أنه لابد من مضى زمن كبير على الصين حتى تصبح أمة من أمة الدرجة الأولى .. ومن واجب الصين أن تبين العلة لمثل هذا الرأى ، وأن تبجد حتى تحوله إلى وهم ، تكذبه الحقائق ، وتكذبه ارقام من مثل الأرقام التى ذكرناها ..

وقد تحدثنا عن العلم ، وعن تنظيم أداة الحكم .. ولكن هذا لا يكتفى . ولكن محور الجهاد لكل أمة ، والعنصر الذى لا تستغنى عنه لكى يقال إنها أمة حية ، هو ثروتها القومية .. مقدار إنتاجها .. مدى رفاهية أهلها ..

هذه الملايين التى تساقط كل عالم كالنداب من الجوع . هذه الملايين التى آذتها الحروب ، وأنهكتها الفاقة ، واران عليها الجهل ..

هذه الملايين التى أغلق عليها باب الحياة المعتدلة الكريمة . هذه الحالة المريرة التى جاءت حكومة «الكومنتانج» فوجدت

بلادها عليها، هي التي يجب أن تتبدل، وتتبدل بسرعة تشبه سرعة
السحر :-

لابد اذن من أن تزداد ثروة الصين ، وأن تنمى .
والحكومة الصينية تبذل في هذا الباب مجهودا تحمد عليه .
فهي تحاول أن تعيد توزيع السكان على رقعة الأرض التي تحكمها،
ولاسيما الذين هاجروا أمام الغزو الياباني في منطقة السواحل إلى
الداخل .

ووزارة الزراعة والغابات تحدثنا في هذا حديثا يجب أن نقف
عنده . فهي تقول إنه يوجد في الصين من الأراضي البور القابلة
للزراعة ٤٣ر١٦٦ر٤٧ « شى مو » [وهو مسطح من الأرض
يعادل سدس فدان] . وتوجد بهامساحة مقدارها ٣٣٠ر٣٨٤ر١٠٢
« شى مو » لزراعة الغابات . وقد اجتهدت الوزارة في نقل السكان
إلى هذه المناطق . مقطعة كل أسرة من ثلاثة أو أربعة أشخاص
أقطاعية من ٦٠ إلى ١٠٠ « شى مو » . وقد تم نقل عدد كبير
من الأسر إلى هذه الأرض ومدوا بالمال وأدوات الزراعة التي تمكنهم
من استغلال هذه الأرض .

وهذا حسن ، والتفكير في زرع هذه المساحات الشاسعة من

الأرض المهمة جميل .. ولكن ليس هذا هو كل شيء . بل ليس .
هذا شيئاً يذكر إلى جانب ما يجب أن يعمل لزيادة ثروة الصين .
عبثاً يظل زعماء الصين يتحدثون عن بلادهم على أنها بلاد
زراعية وكفى ..

عبثاً يحسب هؤلاء السادة ، وكل المسؤولين عن مصائر أى
أمة فى العالم ، ان الفلاحة تكفى لرق الشعوب فى العصر الحديث .
عبثاً يظن أحد أن أمة من الفلاحين يمكن أن تجد لها مكاناً
بين مجموعة الشعوب الحديثة الحية فى هذا الكوكب الذى نعيش
فيه .

إنما تقوم الحضارة وتزدهر فى عصرنا الحاضر عن طريق
الصناعة ...

الصناعة — ثورة العصر الحديث — هى التى تضمن رفاهية
الشعوب وهى التى تستطيع أن توفر القوت للجميع .
وسيقول ناس — وقد قالوه فعلاً — إن الكثير من المواد
لأولية اللازمة للصناعة ، ومنها الحديد والبتروىل ، تنقص الصين .
ولاً مجال لأن تصبح الصين أمة صناعية من غيرها ..

وهذا قول مرذول ، ودعوة متسرع عجول . فنقص أى
مادة من المواد الخام أو المواد المحركة ، ما كان ، ولن يكون عفة

فى سبيل الصناعة . فاجتلترا لا تزرع بزرة واحدة من القطن .
وهى أعظم أمم العالم غزلا ونسجا للقطن ، لأنها تنقله من أطراف
الأرض . ولم تجرب الصين أن تختبر كل أتحائها لتعلم على وجه دقيق
ما ينحىء جوفها من الكنوز المعدنية .. وعلى فرض أن جوفها
خواء من المعادن ، فى أنهارها السريعة المتدفقة ، الكهرباء ،
أعظم القوى المحركة الذى تقوم على تياره أعظم وأضخم الصناعات .
وبالقرب من الصين جميع المعادن التى تحتاج إليها ..
واجب الصين الأول اذن هو أن تتحول إلى أمة صناعية ،
وأن تبني مستقبلها على صوت الآلات ، ووراء جدران المصانع ...
ولا يحتاج تنظيم الصين ، وتعبئتها للصناعة إلى وقت طويل .
ولكن يحتاج إلى عقيدة قوية فى أهمية الصناعة وجدواها .
وما استطاعت اليابان أن تبسط هذا السلطان الهائل على آسيا
نم على اقتصاديات العالم ، إلا لأنها نقلت المواد الخام وصنعت . وقد
ذاقت الصين مرارة العوز الصناعى فى كفاحها الطويل المضنى ضد
جارتها القوية .. وقوية لأنها صانعة .. لا أكثر .
وليس معنى هذا الذى نقوله أن الصين لا تصنع شيئا للآن ..
لا ، ولكنها كانت قد بدأت نهضتها الصناعية على استحياء وفى
بطء شديد ، فلما طاف بها أعصار الحرب دمر الكثير من هذه

الصناعات بأيدي الصينيين أنفسهم حتى لا تقع غنيمة في يد العدو.
ولكن الحكومة الصينية حاولت مع هذا أن تنقل معها جانباً
من صناعاتها ووقفت في هذا بعض التوفيق .

ومن طريف ما يذكر ، أنه حدث مرة أن صدر الأمر
بالانسحاب من إحدى المدن ، ونقل مصنع كبير مع القوة المنسحبة .
وفي هذا اليوم كان العمال مضربين عن العمل لسبب من
الأسباب ، فرفضوا إطاعة هذا الأمر الذي صدر لهم في الساعة
الخامسة بعد الظهر .

ووقع المسؤولون في حرج شديد : لو أخذوا العمال بالشدة فقد
يدمر المصنع ، وإذا انتظروا حتى يتم التفاهم مع العمال فقد تضيع
الفرصة ويظفر اليابانيون بالمدينة .. ولكن حدثت المعجزة ، فقد
ظهرت في هذا الجو المكهرب « سيدة » الصين الأولى مدام
شيانج كاي - شيك ، وتحدثت مع العمال حديثاً قصيراً . وما أن
أتى الصباح حتى كان المصنع قد نقل .

أجل — الصناعة هي حجر الزاوية في مستقبل الصين .
وليس معنى هذا أن تترك الزراعة أو تهمل . لا . ولكن تخضع
الزراعة نفسها للصناعة ، بمعنى أن توضع في أيدي الفلاحين الآلات

الزراعية الحديثة ، ويشرف العلم والعلماء على انتاجهم حتى يصل إلى الثروة جيدة وكثرة .

وكما يجب أن تسيطر الصناعة على الحقل ، يجب أن تسيطر كذلك على وسائل الري ، فلا تترك الأنهار العظيمة في حالتها البدائية التي خلقت عليها من غير خزانات وسدود وقناطر . وبذا تقل الفيضانات التي تهلك الملايين غرقا ، وتقل الانخفاضات التي تهلك الملايين جوعا وعطشا .

أجل — العقل العلمى الهندسى هو الذى يجب أن يسود ويتسيطر . ولا نجاة للأمم الشرق من هذه التخلف إلا فى كنف الصناعة والإنتاج الكبير الذى يرق مستوى الحياة ، ويرتفع بالفكر إلى أوج رفيع ، ويجعل للحياة طعما ومعنى .



وقصة المواصلات تحتاج إلى عناية ، لا تقل عن العناية بأعظم المرافق الحيوية .. وقد ذكرنا قبل أن زعيم الصين الأول الدكتور « صن » كان يرى ضرورة التعجيل بإنشاء ١٠٠ ألف ميل من الخطوط الحديدية ، ومليون ميل من الطرق الأرضية ، حتى تصبح أمة موحدة .

وقد بدأت شركات الطيران الأوربية — وعلى الأخص شركة

أوراسيا الألمانية — نشاطها ، في إنشاء شبكة خطوط هوائية من أعظم الشبكات الماثلة لها في العالم . ولكن الحرب الحاضرة ، وشدة ضغط اليابان أوقف نمو هذا التطور الهام .

إلا أنه لا يمكن الاعتماد على الطيران وحده ليكون وسيلة للنقل القومى . فسكة الحديد ، كانت وستظل من أهم وسائل النقل الحديث على الأرض .

وقد ظهر أخيرا كتاب هام عن هذا الموضوع ألفه الوزير الصينى « شانج كاي - نابو » الذى تقاعد منذ عامين فقط .

فى عام ١٩٣٥ تلقى هذا الوزير دعوة من المارشال شيانج كاي - شيك لكى يتولى إدارة السكك الحديدية فى الصين وفى عام ١٩٣٧ تولى وزارة المواصلات كلها . وقبل تقاعده عام ١٩٤٢ ، كان قد أضاف إلى السكك الحديدية فى بلاده ٢٢٦٣ رميلا ، كما مهد ١٨٩٩٤ ميلا من الطرق الأرضية

وقد أورد هذا الوزير السابق تفاصيل طريفة عن تاريخ إنشاء السكك الحديدية فى الصين . فقد قال إنه منذ سبعين سنة كان امبراطور الصين يحتفل بذكرى معارضته فى إنشاء أول خط حديدى فى بلاده لأن « الأجانب الجهلاء يريدون اشاعة

الفوضى في الأرض التي يسكنها بنات الآلهة . وخدمات البحر .
والأرواح العالوية » كما ورد في المرسوم الامبراطوري
ومع مضي الزمن أمكن التغلب على المعارضة الكثيرة وانشاء
أول خط في البلاد .

وعندما نشبت الحرب اليابانية الصينية ، كانت قيادة الجيش
تأمر بمد خطوط حديدية تمس لها خطط الحرب الاستراتيجية .
وكانت تحرس هذه الخطوط حراسة قوية ، لأن بعض الأهالي
الذين لا يزالون متأثرين بآراء امبراطور الصين من سبعين سنة ،
كانوا يحاولون الإغارة على هذه الخطوط وتخطيمها .

وقد استولت اليابان على معظم الشبكة الحديدية الشرقية
ولا تملك حكومة المارشال شيانج كاي - شيك غير بضع مئات من
الطرق الحديدية الآن .

ومؤلف هذا الكتاب يتمثل أمامه المجهود الهائل الذي يحتاجه
من الخطوط التي تلزم بلاده ، ويندى شيئا من التشاؤم في امكان
تحقيقه بالسرعة المطلوبة . ولكنه يقول ان أمام الصناعات الغربية
فرصة طيبة لكي تلعب دورها في مد هذه الخطوط عندما تسنح
لها الفرصة .



فحة الأفيون

وأظن أن شيئاً ينقص هذا الكتاب ، إذا لم نقل كلمتين عن « قصة » الأفيون في الصين . التي يقرن اسمها في ذهن الكافة بدخان متكاثف ينعقد في سماء الغرف الخلفية — وربما الأمامية — من حرق هذا المخدر . .

وقد أحاط الحديث عن الأفيون في الصين الكثير من المبالغة . والتهويل . فليس صحيحاً أن كل صيني يفطر إذا كان الصباح برغيف من الخبز ، ورطل من الأفيون . لأن رطل الأفيون يقتل قطعاً من الفيلة !! وليس صحيحاً أن حكومة الصين تحكم بالإعدام على كل مدخني الأفيون هناك ، لسبب بسيط ، وهو أننا لم نسمع أن ربع سكان الصين أعدموا في عام من الأعوام . . .

ويحسن قبل كل شيء أن نذكر حقيقتين : الأولى أن نفختين أو ثلاثة من دخان الأفيون لا تكفي لأن تتداعى تحت وطأتها

أخلاق وروح وجسد المدخن . ففي هذا شيء من المبالغة ، والثانية إن بعض الأطباء ذوى المكانة والعلم - وعلى الأخص من الأميركيين يؤكدون أن الأفيون لا يزيد في اضراره بمتعاطيه على بعض أصناف الويسكى القوية . . . ويقل تأثيره أحياناً عن بعض الخمر الصرفة أو المزوجة ممزوجة بخمر آخر .

ويدخن عامة الصينيين الأفيون ، وعلى الأخص - الكولى - أى طبقة العمال الفقراء ، مثلما يتناول بحارة الأسطول البريطانى كوباً ضخماً من البيرة بعد يوم من الجهد الشاق المضى . كما أن طبقة المترفين من الصينيين تمتص نفساً أو نفسين إذا أقبل العسق بنفس الطريقة التى يرشف بها أحد المترفين فى نيويورك جرعة أوجرعتين من الكوكيتيل قبل الذهاب إلى سهرة شائعة فى الأوبرا .

وقد نشأت عادة تدخين الأفيون فى الصين ، للتخفيف والترفيه أعنى لازالة التأثير المضى الذى يحل بأبدان الصينيين الكادحين فى الحياة الذين يشتغلون عامة يومهم بأشق الأعمال . فالأفيون ينسبهم متاعب يومهم ، أو هكذا يزعمون

كما أن هذه الطبقة الفقيرة ، التى ينهكها العمل فوق طاقتها ، يضئها أيضاً الجوع ، لتفاهة أجورها ، ولا سبيل لاسكات نداء المعدة أو بالقليل لاختفات صوت هذا النداء إلا بتخديرها . فالأفيون يميت . ألم الجوع وألم البدن . . .

وقد تقل جون جنتر عن أحد الأجانب المقيمين في الصين ،
المتأثرين بالفطنة والذكاء قوله : « الأفيون للصيني يضيف إلى يوم
عمله ساعة من أبهج ساعات النهار ! ! » .

ويقول نفس الكاتب : للأفيون دخل في شؤون السياسة ،
والاجتماع ، والاقتصاد الصيني ، أكثر من دخل الخمر في حياة
الأمريكيين مثلاً . ولقد عاش معظم الأميركيين في زمان حرمت فيه
الخمر . ولكي تجرب مثل هذه التجربة في الصين . أى النع البات
لا بد من القضاء على إرهاب البدن ، ومسببات الجوع . . أى
لا بد من الارتقاء بالمجتمع وبمستواه المادى ارتقاء كاملاً .
وكدت أنسى . .

فالأفيون مصدر هام من مصادر الإيراد الحكومى ، الذى
تفرض عليه ضرائب باهظة . ومنذ أعوام [كتب هذا الكلام
عام ١٩٣٩ أى قبيل الحرب العالمية الحاضرة مباشرة] كان دخل
مقاطعة (هونان Honan) من الأفيون ٣ مليون جنيه في السنة
. وإن المقاطعة الأخرى التى تشبهها في النطق العربى ، وإن اختلفت
في النطق الصينى وهى (هونان Hunan) فكان دخلها ٤ مليون
جنيه . وأما مقاطعة كوانتنج فكان دخلها ٤٠٠.٠٠٠ ر ٢ جنياً
وهكذا . .

وقد غطى اليابانيون من دخل الأفيون وحده في جهول جميع نفقات حملتهم على هذه المقاطعة ، وخرجوا على عجل بأرباح مركبة ويقدر نفس المصدر ، وهو جون جنتر في كتابه Inside Asia أن حكومة المارشال شيانج كاي - شيك تتقاضى ضرائب سنوية على الأفيون تبلغ ٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠ دولاراً صينياً - الدولار الصيني نحو ثلاثة قروش ونصف قرش بالعملة المصرية . [هذا تقدير عام ١٩٣٨] . ولكن الكاتب يشير إلى أن الدخل من الأفيون يدرج في ميزانية سرية ، ولا يضاف مطلقاً إلى أبواب الميزانية الرسمية ، ولا إلى الإحصاءات العامة . وكل دخل الأفيون ينفق على الشؤون العسكرية . وعند ما شرع المارشال في حربه الكبرى ضد أمراء الحرب لتوحيد الصين ، ضرب ضرباته الأولى الحاسمة في المقاطعات الغنية بإنتاج الأفيون ، ليضمن مالا ثابتاً ينفق منه على برنامجه الكبير . وقد تأكد نجاح حملته عند ما عرف أنه وضع يده على هذه المناطق . . لأن الحرب هي المال . . والمال هو وقودها ، وعمرها الأ كبر والأهم .

وحكومة الصين الوطنية تدرك تماماً مضار هذه الآفة على كيانها الوطني والاجتماعي . ولكن ليس في استطاعتها أن تقضي عليها بجرة قلم ، أو بأمر تصدره . لأن العادات التي تأصلت منذ

أحقاب طويلة تحتاج في استئصالها إلى جهود متوالية .. والمخدرات
في مصر لم تنقطع تماماً ، على الرغم من أن الحملة عليها بلغت أشدها
وعلى الرغم من أن المصريين ليسوا من شعوب المخدرات
ومما يؤذى الحكم الوطني في الصين أن كثيراً من الفلاحين يفضلون
زراعة الأفيون [نبات الحشخاش المعروف] على زراعة القمح ،
فيمتوتون جوعاً ، لأنه لا يوجد لديهم ما يقاتلون به .

ولا يمكن الجزم بما إذا كانت تجارة الأفيون في الصين عملاً
مشروعاً أو غير مشروع ، ولكن يمكن الجزم بأن الحكومة خطلت
خطوات حاسمة وجريئة في السيطرة على إنتاج الأفيون والاتجار به
وهي الخطوة الأولى للتخفيف منه ثم منعه . فكذا يجب أن يكون
التدرج في العمل . وعندما كانت آفة الخمر منتشرة قديماً بين
العرب ، تدرج القرآن الكريم في تحريمها من الإباحة إلى التقييد
ثم إلى المنع البات .

وأهم العقوبات التي تفرض على مخالقات الأفيون عقوبة
التهريب . أي الإنتاج أو الاتجار دون دفع الضرائب المقررة ،
أو بنظام غير الذي قرره اللوائح . والتحايل على عدم أداء الضريبة
على كرة صغيرة من الأفيون ، يكفي لأن يزج المخالف في السجن
عاماً كاملاً ..

والعقوبة الثانية هى الإعدام .. لا على المدخن ، أو المتجر .
ولكن على الذين تعالجهم الحكومة من آفة الادمان على نفقتها ،
ثم يعودون إلى هذه الآفة . هؤلاء يقضى باعدامهم . فقد أنشأت
الحكومة مصحات ، وزودتها بالوسائل والفنيين الذين يرثون
البدن من التسمم بالأفيون . ولا قيمة لهذه الجهود العلاجية إذا
فتح الباب ولو من ثقب صغير ، للعودة مرة أخرى . ومن هنا كان
الإعدام حكمة لا قسوة .

وهذا كله حسن وجميل ، ويسجل بالحمد للحكومة الصين .
ولكن الغزو اليابانى . ككل استعمار يقضى على أعظم الجهود
للإصلاح الوطنى . ويجعل من الآفة آفتين .
ففى المساحات المكتظة بالسكان التى احتلها عسكر اليابان ،
نظمت الادارات اليابانية « المختصة » تعاطى المخدرات . وكان من
وسائل التنظيم أنها قررت نشر الهيروين — ولا بأس من أن يقال .
فى الدعاية أنها خفضت من استهلاك الأفيون .

وبعد أن كان ثمن أوقية الهيروين ١٦٠ جنيه فى عهد الحكم
الوطنى ، كالت اليابان هذا الغلاء !! فانخفض السعر إلى الحد
الأدنى الذى يمكن تصويره إلى قليل من الجنيهات (٥ جنيهات) . وبعد
أن كانت هذه المادة فى متناول المليونيرات — إذا كان فى الصين من

يوصف بهذا الوصف من الوطنيين — أصبح الآن في متناول
الكافة . وقد قرر الدكتور « سيرل بيت » نائب رئيس جامعة
نانكين عدد مدمنى هذا السم الأبيض في المدينة التى يعيش فيها
بـ ٥٠٠.٠٠٠ مدمن أى نحو ثمن عدد سكان المدينة . ومن هؤلاء
المدمنين نساء وأطفال .

واليابان غرضان من نشر الهيروين : فهى تريد القضاء التام
على معنوية الشعب الصينى وتحليل كل مقومات فضائله . وفى نفس
الوقت تكسب دخلاً طيباً من هذه التجارة الرسمية على الرغم من
انخفاض الأسعار . وذلك لكثرة التداول .

وهكذا يمكن أن نقرر ونحن مطمئنون — أن اليابان لا تحب
تعاطى الأفيون كثيراً فى الصين لأنه تفضل عليه مخدراً آخر .
ولكن هذا الحب المفقود بين اليابان وبين الأفيون لم يمنع انتشاره
إلى حد لم يسبق له مثيل فى المدن الكبرى أمثال بكين ، وتيانسن
ونانكين . . .

وبين مد الحادثات وجزرها ، تسلط هذه الآفات على الشعب
الصينى وتفسد فى كثير من الأحيان تدابير الحكومة الوطنية
للقضاء التدرىجى عليها . ولكن سيشرق على الصين فجر جديد
عند ما تخضع أرضها للحكم الوطنى الرشيد الذى تمارسه الآن

حكومات الكومنتانج . لأنها من صميم الشعب ، وتحس بغيره
حقيقية على صالح الشعب .

وقد لخص الصينيون الكبار مكانة وعلماء ودراية بشؤون
شعبهم .. لخصوا مطالب بلادهم في ثمانى مسائل :

- ١ — خلق يتحلى به رجالها .
- ٢ — صناعات كبرى ، وتحديد وإصلاح فى أساليب الزراعة
يزيد الدخل القومى للشعب الصينى .
- ٣ — أمانة فى القيام على المرافق العامة والخاصة . والقضاء
على عادات « البقشيش » الاجبارى . وفقد الوجه ،
أو الحاق العار .
- ٤ — عدد أوفر من الفنيين والمهندسين .
- ٥ — القضاء على الهزيمة والتردد .
- ٦ — مدفعية قوية .
- ٧ — رجال أكثر من أمثال شيانج كاي - شيك ، ت . ف
سونج مدير المالية (أخو مدام شيانج كاي - شيك) .
- ٨ — طرد اليابان من الصين .



وبعد ...

فإن الأمة التي قدمت للعالم أغر ما يلبس وهو الحرير، وأشهى ما يؤكل وهو الأرز ، وأبدع ما يشرب وهو الشاي ، وأجمل ما يرى وهو الزهور .. إن البلاد التي صنعت الورق والصيني والبارود وسبقت إلى إيجاد الصحافة .. إن الأمة التي تفنت في النقش والزخرفة وخلقت أصابعها الآيات .. هذه الأمة يجب أن تعود سيرتها الأولى كما كانت خالقة عالمة قارئة مترفة في زيتها ومأكلاتها ومسكنها ومركبها .

واذن فنحن إذا قلنا إن العبء فوق زعيم الصين وأعدائه الأمناء ثقیل ، فنحن نقول حقا .

وإذا قلنا أيضا أن لدى هذه العصابة الصادقة من أتباع صنيات - سن من الإخلاص ما يطمئن أصدقاء الصين على مصير هذه الأمة العريقة الصديقة فنحن نقول حقا ..



فهرس

صفحة	
٥	مقدمة المؤلف
١٦	الصين في سطور
٢٥	أزمة السكون
٢٦	حكيم الصين
٣٧	ثورة الصحراء
٤٨	ولاء الشعب
٤٩	. غبار كشف
٥٦.	أمراء الحرب
٧١	في خدمة الميكادو
٧٧	إعلان الحرب على الحرب
٧٩	الحمر والصفير
٨٣	من هو؟
٨٤	الرجل
٩٦.	الثروة والأسرة
١١٥	الأسير
١٣٠	ومرأا لوجه
١٣٢	سير الزمن
١٤١	الحرب والسلام
١٤٥	معركة السلم
١٦٤	قصة الأفيون

كتاب الشهر

دار الثقافة العامة
شارع محمد علي ١٦٠ بالقاهرة

كتاب الشهر

مجلة نداء الحرية

المحرر المسئول: محمد صبيح

٣ - العدد الـ ١٠١

المجموعة الثانية

ت ٥٥٩٩

١٩٤٤ - ١١ - ١

ما صدر من كتب الشهر

قادة الغرب

- ١ - تشرشل
- ٢ - ستالين
- ٣ - أتا تورك
- ٤ - ديغاليرا
- ٥ - هتلر
- ٦ - الميكاكو
- ٧ - موسوليني

قادة الاسلام

في ٢٠ عدداً

- ١ - القرآن في جزئين
- ٢ - محمد « ٤ أجزاء »
- ٣ - أبو بكر
- ٤ - عمر
- ٥ - علي في جزئين
- ٦ - خالد
- ٧ - عمرو بن العاص
- ٨ - معاوية
- ٩ - عمر بن عبدالعزيز
- ١٠ - أبو مسلم الخراساني
- ١١ - المنصور
- ١٢ - الرشيد
- ٣ - المأمون
- ١٤ - صلاح الدين الأيوبي

قادة العرب

- ١ - الملك ابن السهم
- ٢ - شاه إيران
- ٣ - محمد عبده
- ٤ - شياح كاي شيمك

Bibliotheca Alexandrina



0694736

